ابو العباس بن الرومية
عالم الاعشاب والنباتات الطبية ـ حياته وتراثه
٥٦١ ـ ٦٣٧هـ/ ١١٦٥ ـ ١٢٣٩م

الدكتور
جزيل عبدالجبار الجومرد
استاذ مساعد / قسم التاريخ / كلية التربية

عصره :

عاش ابو العباس بن الرومية ستة وسبعين عاماً ، وعلى الرغم من ان معظم حياته قد تقضّت في بلاد الاندلس ، وبالاخص في مدينة اشبيلية ، الا ان رحلته التي استغرقت قرابة السنوات الثلاث ، وكان لها ثقلها الكبير في تكوينه العلمي وشهرته ، بالاخص بوصفه نباتياً ثم محدثاً ، دارت وقائعها على مسرح جغرافي اوسع مدى ، يتخطى حدود مدينته وبلاده الاندلس ، إلى المغرب وشمال افريقيا ومصر والحجاز والعراق واقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ، وربما صقلية ايضاً ، كما سنأتي عليه تفصيلاً ، ومن هنا فان صورة عن اوضاع عصره باختصار في هذه البقاع قد تجعل من فهم سياق سيرته وثقافته وعلمه شيئاً اكثر يسراً .

كانت البلاد العربية والإسلامية في النصف الثاني من القرن السادس والنصف الاول من السابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، تعيش ارهاصات ضعف منبيء بافول ، فداخلياً كانت الانقسامات الاقليمية والمحلية كثيرة ومنتشرة ، والصراعات بين الدويلات والطوائف والفئات لا تعرف ركوداً ، والتمردات والثورات على هذا او ذاك من الانظمة السياسية الاقليمية المستقلة او شبه المستقلة ظاهرة متواصلة تأخذ بدايات بعضها باعقاب بعض . اما خارجياً فقد كانت حدود «دار الاسلام» تتعرض للغزو من جبهات عدة ، فتتآكل مع ضراوته اطراف مغارب تلك الدار ومشارقها على حد سواء ،

في الاندلس، في زمن ابي العباس بن الرومية ، كان الموحدون قد فرضوا سلطانهم على غالبية مدن تلك البلاد التي كانت لا تزال اسلامية ، بعد ان كانوا قد تملكوا بلاد المغرب وشمال افريقيا منذ سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م (١). وخلال مدة حكمهم للاندلس التي دامت قرابة عقوداً سبعة، وحدوا فيها ، تقريباً ، مدن تلك البلاد المسلمة ، من كبريات المدن الوسطى والجنوبية كبلنسية ومرسية وغرناطة ومالقه وجيان وقرطبة واشبيلية (٢) . الا ان هذه البلاد عانت في عهدهم من مشكلتين موهنتين ، اولاهما : الاضطرابات وحركات التمرد الداخلية في بعض المدن من وقت لآخر . وثانيتهما : تنامي خطر الممالك الاسبانية المسيحية في النصف الشمالي من الاندلس ، مملكة اركون ، وقشتالة ، والبرتغال ، والتي ازدادت قوتها وتفاقم خطرها على مدن الاندلس الاسلامية ، مع تزايد الانشقاقات والتمردات في داخل تلك المدن ، وخاصة بعد موت رابع خلفاء الموحدين الكبار ، محمد الناصر لدين الله بن يعقوب (٥٩٥ ـ ٦١١هـ / ١١٩٩ ـ ١٢١٤م) وتفكك الاسرة الموحدية ذاتها وتناحر امرائها وتمرد بعضهم على بعض (٣) . ثم انفجرت حركة محمد بن يوسف بن هود في مرسية (٦٢٥هـ / ١٢٢٨م) التي امتد أوارها لكي يأتي على الوجود الموحدي في مدن الاندلس المذكورة تباعاً (٤) ، بما في ذلك مدينة ابن الرومية ، اشبيلية ، سنة (٦٢٦هـ /١٢٢٩م) (٥) . ولكن ابن هود عاني

(١) عبد الواحد بن علي المراكشي : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تح محمد سعيد العريان ومحمد العلمي ، دار الكتاب ، الدار البيضاء - المغرب ، ط٧ ، ١٩٧٨ ، ص ٣١٠ - ٣١١ . وكذلك .

Stanly Lane-Poole: The Muhammadan Dynasties, Karachi, 1960, PP. 37-40.

(٢) انظر هاري . و ، هازارد : اطلس التاريخ الاسلامي . ترجمة ابراهيم زكي خورشيد مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بلا . ت ، ص١٩ .

(٣) محمد عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ق٢ ، ص ٣٢٨ ، ٣٤٨- ٣٦٦ .

(٤) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، قسم الموحدين ، تح محمد ابراهيم الكتاني وآخرين ، دار المغرب الاسلامي ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٢٧٦-٢٩٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ .

من نفس المشكلة ، فقد شبت التمردات ضده (٦) ، مما فت في عضده وأوهن الاندلس جملةً فسهل ابتلاع اجزائها عندما اعملت الممالك الاسبانية المسيحية اضرامها فيها . فبعد عهد من الانتصارات التي حققها خلفاء الموحدين الاوائل ، التي كان اكثرها حسماً انتصار ثالثهم عبدالله بن يعقوب بن يوسف (٥٨٠ — ٥٩٥هـ/١١٨٤ — ١١٩٩م) على ملك قشتالة في موقعة الارك (٥٩١هـ/١١٩٥م) (٧) التي تركت موجة من التفاؤل العميق في نفوس مسلمي الاندلس وزودتها بمردود معنوي كبير ، بعد ذلك بدأ التراجع وكثرت الاحباطات في آخر عهد الموحدين وفي زمن ابن هود كما ذكرنا ، وكان اقساها سقوط قرطبة بيد القشتاليين بعد ان عجز ابن هود عن حمايتها (٦٣٣هـ/١٢٣٦م) (٨) ، فكان ذلك بمثابة النذير باجل الاندلس المحتوم ، فقد اخذت المدن الاسلامية الاخرى تسقط مع مرور الزمن ، ومنها مدينة اشبيلية ، عقر دار ابن الرومية ، حيث استولى عليها ملك قشتالة سنة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) (٩) ، اي بعد وفاة ابن الرومية بتسع سنوات ، خلال الفترة نفسها ، كان المغرب وشمال افريقيا بيد الموحدين ، ولم يخرج من يدهم الا تونس وطرابلس سنة (٦٢٥ هـ/ ١٢٤٨م) لتؤول الى الحفصيين (١٠) ، وذلك بعد ان كان ابن الرومية قد انجز رحلته الى الشرق وعاد الى بلاده .

اما الى الشرق من الشمال الافريقي ، فمصر وبلاد الشام والحجاز واليمن ، فانها كلها كانت تحت حكم الايوبيين ، صلاح الدين (ت ٥٨٩هـ/

(٦) عنان : عصر المرابطين ، ق٢ ، ص٤١٤ .
(٧) انظر التفاصيل لدى يوسف اشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبدالله عنان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٨ ، ص٣١١ ، ٣١٧ ، ٣١٩–٣٢٤ .
(٨) عنان : عصر المرابطين ، ق٢ ، ص٤٢٤ .
(٩) المرجع نفسه ، ص٤٣٢ .
(10) Lane-Poole: Op. cit. p. 44.

١١٩٣م) وخلفاؤه . فمنذ ان نجح صلاح الدين الأيوبي في انهاء الدولة الفاطمية في مصر (٥٦٧هـ / ١١٧١م) واعلان ولائها للخلافة العباسية في بغداد (١١) ، فانه سعى ضمن جهود حثيثة الى توحيد تلك البلاد في جبهة واحدة تصدى بها للكيانات الصليبية التي كانت قد تأسست في بلادالشام منذ نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي اثر الحملة الصليبية الاولى عليها، فتمكن من دحر الصليبيين الفرنجة في معركة حطين (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) واسترد منهم بيت المقدس في السنة نفسها فضلا عن معاقل اخرى كانت بأيديهم ، كما تمكن من كبح جماح الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٥ — ٥٨٨ هـ / ١١٨٩ — ١١٩٢م) وافشل اهدافها الرامية الى اعادة احتلال بيت المقدس وسواه مما تم تحريره (١٢) . وقد خلف صلاح الدين اولا بعض ابنائه ثم اخوه الملك العادل ابو بكر (٥٩٦ — ٦١٥ هـ/ ١١٩٩ — ١٢١٨م) (١٣) ، الذي وصل في عهده ابو العباس ابن الرومية في رحلته الى مصر وبلاد الشام، فالتقى به ورافقه مدة من الزمن في القاهرة سنة(٦١٣ — ٦١٤هـ / ١٢١٦ — ١٢١٧ م) (١٤) .ثم خلف العادل ابناؤه و كلهم سعى الى الجهاد ضد الصليبيين (١٥) .وقد تميز عهد الايوبيين في تلك البلاد، بعد حركة الجهاد ضد الصليبيين ، برعاية العلم والعلماء ودعوتهم للقدوم الى تلك البلاد لاعمار مدارسها ودور حديثها التي اكثروا من انشائها في جميع

---

(١١) بهاء الدين بن شداد : سيرة صلاح الدين ، تحقيق جمال‌الدين الشيال ، القاهرة ، ط١، ١٩٦٢ ، ص٤٥ .

(١٢) للتفاصيل انظر عبدالله سعيد الغامدي : صلاح الدين والصليبيون ، دار الندوة ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص٢٩—٨٩ . وحول الحملة الصليبية الثالثة وافشال خططها انظر ابن شداد سيرة ، ص ١٠٣ — ٢٣٤ .

(١٣) السيد الباز العريني:الايوبيون ، دار النهضة العربية ،مصر ، ١٩٦٧ ،ص ١١٤ — ١١٨.

(١٤) موفق الدين ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٥٣٨ .

(١٥) العريني : الايوبيون ، ص ١٣٣ — ١٥٤.

المدن المهمة بحيث غدت مراكز استقطاب علمية وثقافية لمفكري العصر ومثقفيه من انحاء العالم الاسلامي كافة (١٦) ، وقد عرف الاندلسيون ذلك واشار اليه منذ مدة مبكرة احد اشهر رحالتهم ، ابن جبير (١٧) ، وهو ممن التقى بابن الرومية في الاسكندرية عند وصوله اليها في رحلته سنة (٦١٣/١٢١٦م) (١٨) وممن كان قد دعا الاندلسيين والمغاربة منذ ان كتب رحلته (بعد ٥٨١ هـ / ١١٨٥م) للارتحال الى المشرق وطلب العلم فيه ، وخاصة في بلاد الشام (١٩) .

في محاذاة بلاد الشام الى الشرق ، في اقليم الجزيرة الفراتية ، قامت دويلات المدن المتآلفة حيناً والمتناحرة حيناً آخر ، كأتابكية الزنكيين في الموصل واراتقة ديار بكر واتابكية البكتكين في اربل ، وسلاجقة الروم في اسيا الصغرى (٢٠) والى الجنوب من كل هؤلاء دار الخلافة العباسية ، في بغداد ، التي كانت في زمن ابن الرومية قد بدأت تستعيد بعضاً من سابق مجدها بفضل جهود الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ — ٦٢٢هـ/ ١١٧٩ — ١٢٢٥م) بعد فترة من خضوع الخلافة للمتغلبين الديالمة البويهيين او الترك السلاجقة ، فاتسعت رقعة هيمنة الخلافة بعض الشيء بعد ان تقلصت وكادت تقتصر على بغداد ، وامتدت هيمنتها المعنوية على بلاد الشام ومصر والحجاز

---

(١٦) المرجع نفسه ، ص ٢١٨ — ٢٢٩ .

(١٧) محمد بن احمد بن جبير : الرحلة ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٤٥ — ٤٥١ كذلك .

(١٨) محمد بن محمد بن عبدالملك المراكشي : الذيل والتكملة ، تحقيق محمد بن شريفة ، دار الثقافة ، بيروت ، بلا ، ت . سفر اول ، القسم الثاني ، ص٣٩٠ .

(١٩) ابن جبير : الرحلة ، ص٢٥٨ .

(20)Lane-Poole: Op. Cit. pp. 149. 153 , 152 142.

والعراق وبلاد الاسلام الى الشرق من دار الخلافة ([21]) . وفي عصر هـذا الخليفة ، وعصر خلفه وخلف خلفه المستنصر بالله (٦٢٣ — ٦٤٠هـ/ ١٢٢٦— ١٢٤٢م) ازدادت بغداد نشاطاً من الناحية العلمية فاستعادت مركزها الثقافي اثر اعتناء الناصر بتطوير المدرسة النظامية وبذل العناية لها ولعلمائها([22]) وكذلك عندما اسس المستنصر المدرسة المستنصرية الشهيرة فيها سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) ([23]) قبل مدة قصيرة من اجتياح المغول البلاد سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) .

كان هذا هو وضع الارض العربية الاسلامية التي نشأ عليها ابو العباس إبن الرومية . وتأثر تكوينه الثقافي بظروفها السياسية والثقافية ، وجال في رحلته بين ارجائها فتفاعل معها بيئة وثقافة ، فجاء تراثه الذي تركه خلاصة علمية لذلك التفاعل .

حياته :

اتفق من عرف ابا العباس او عاصره ممن ترجم له على ان اسمه هو احمد إبن محمد بن مفرج الاموي([24]) . ويضيف الذهبي (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م) بجعل مفرج ابناً لعبد الله ([25]) ، وهو ما يكرره الذهبي نفسه في كتابين

---

(٢١) انظر التفاصيل فيما كتبه الباحث مع خليل ابراهيم السامرائي وآخرين : تاريخ الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي ، مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٨٨ ، ص ٢٧٧— ٣٠٣ ، ٣٣٣—٣٤٠ .

(٢٢) محمد بن عمر الايوبي : مضمار الحقائق وسر الخلائق ، ترجمة حسن حبشي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٧٠ .

(٢٣) للتفاصيل انظر «المستنصرية في التاريخ» ، ندوة ، بغداد ، ١٩٨٦ ، وفيها العديد من البحوث .

(٢٤) محمد بن عبدالله بن الابار : تكملة الصلة ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ج١ ، ص١٢١ ، والمراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٧ . وعلي بن موسى بن سعيد : اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى ، تح ابراهيم الابياري ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٠ ، ص١٨١ . وعبدالعظيم بن عبد القوي المنذري : التكملة لوفيات النقلة تح بشار عواد ، مطبعة عيسى البابي ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ج٦ ، ص ٣٣٥ .

(٢٥) محمد بن قايماز الذهبي : تذكرة الحفاظ ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، ١٩٥٨ ، مج٢ ، ص١٢٢٥ .

آخرين له وردت فيهما ترجمة ابي العباس (٢٦) . بينما نجد المؤرخ المتأخر ، المقري (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) يجعل مفرجاً ابناً لابي الخليل الأموي (٢٧) ويبدو هنا ان المقري اخطأ عندما عد كنية مفرج ، ابي الخليل (٢٨) ، اسماً لوالده .

يشير لقب مفرج ، الاموي ، الى انه كان من موالي بني امية (٢٩) ، والذي نعرفه عن مولاه انه كان قد تبناه وانه احد اطباء قرطبة (٣٠) ، ومن هنا فان الجد مفرج هذا قرطبي وليس من اشبيلية التي صار حفيده ابو العباس إبن الرومية ينسب اليها فيما بعد (٣١) . وقد تعلم مفرج عن مولاه الطبيب علم الاعشاب الطبية والمعالجة بها (٣٢) ، وقد برز في هذا العلم بحيث غدا قدوة فيه (٣٣) ، ويبدو انه لم يتعلم العلم ويجيده فقط بل مارس العشابة (الصيدلة) حرفة ، وهو مافعله ابو العباس ، الحفيد ، فيما بعد .

اما محمد بن مفرج ، والد ابي العباس ، والمكنى بأبي عبد الله (٣٤) ، فلا نعرف عنه سوى انه اخذ علم النبات الطبي ، العشابة ، عن والده مفرج فكان قدوة فيه كابيه (٣٥) .

---

(٢٦) محمد بن قايماز الذهبي : سير اعلام النبلاء ، تح بشار عواد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط٣ ، ١٩٨٦ ، ج٢٣ ، ص٥٨ .
والذهبي : المشتبه في الرجال ، تح علي البجاوي ، مطبعة عيسى البابى الحلبي ، + القاهرة ، ١٩٦٢ ، ج١ ، ص٣٣٩ .

(٢٧) احمد بن محمد المقري : نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب ، تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٤٩ ، ج٣ ، ص٣٥٣ .

(٢٨) وردت الكنية هكذا لدى المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٧ . ومحمد بن عبدالله لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في اخبار غرناطة ، تح محمد عبدالله عنان ، دار المعارف مصر ، ١٩٥٥ ، مج١ ، ص٢١٥ .

(٢٩) المنذري التكملة ، ج٦ ، ص ٣٣٥ ، والمراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٧

(٣٠) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٨ .

(٣١) جميع المصادر الواردة في هامش (٢٤) .

(٣٢) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص ٤٨٨ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص٥١٢ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٤٨٧ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ٥١٢ .

ولانعلم اكثر من هذا عن حياته وثقافته ، ولكن يبدوانه تزوج من امرأة رومية هي التي انجبت له ابنه أبا العباس ، يدل على هذا تلقب ابي العباس بأبن الرومية بوصفها اشهر كنية له (٣٦) . ويستنتج كراتشكوفسكي من ذلك ان امه كانت من نصارى الاندلس (٣٧) .ولانعرف لابي العباس اخوة او اخوات ، الا ان كنية الوالد ، ابي عبد الله ، قد توحي بأنه كان لابي العباس اخ بهذا الاسم .

ولد ابو العباس احمد بن الرومية سنة (٥٦١هـ /١١٦٥م) (٣٨) وبالتحديد في شهر محرم من تلك السنة (٣٩) . ورغم ان المصادر المعاصرة له تشير الى « انه من اشبيلية» (٤٠) . او « من اهل اشبيلية » (٤١) فليس هناك مايقطع بان ولادته كانت فيها ، وان كنا نرجح ذلك مع من قال به من المحدثين (٤٢) . فربما كانت اسرته قد استقرت في اشبيلية قبل ولادته .

تكوينه الثقافي والعلمي :

تابع ابو العباس احمد والده في امتهان حرفة العشابة (الصيدلة) ، فتعلم علم النبات والتطبيب به « عن ابيه وعن جده »(٤٣) ، ويخبرنا من التقى به

---

(٣٦) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص١٢١ . وابن سعيد : اختصار القدح ، ص ١٨١ ، والمنذري : التكملة ، ج٦ ، ص٣٣٥ .

(٣٧) ا. كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ق١ ، ص٣٤٧ .

(٣٨) ابن الا بار : تكملة ، ج١ ، ص١٢١ ، والمراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢،ص٥١٣، والذهبي : سير ، ج٢٣ ، ص٥٨ .

(٣٩) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٥١٣ .

(٤٠) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص١٢١

(٤١) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ص٥٣٨ .

(٤٢) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب ، ج١ ، ص٣٤٧ .وهو يستخدم عبارة «على مايظهر» وانظر محمد عبدالله عنان،تراجم اسلامية شرقية واندلسية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٠ ، ص٣٣٨ ، وهو يقول «وينتمي الى اسرة قرطبية من موالي بني امية ، ونزحت فيما بعد الى اشبيلية ، وفي اشبيلية ولد ابو العباس ..» .

(٤٣) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٥١٢ .

انه كان له دكان متسع يجلس فيه لبيع الاعشاب والعلاج بها (٤٤) ، الا ان احداً لم يحدد لنا ماإذا كان قد ورث ذلك الدكان عن أبيه ام انه افتتحه بعد اكتمال معرفته النباتية وشيوع امر اتقانه لها . وعلى اية حال فالواضح انه بدأ منذ مدة مبكرة بدراسة النباتات والاعشاب وقواها الطبية وفوائدها الصيدلانية . واذا كان ابو العباس قد اشتهر بتبريزه في هذا العلم فانه برز الى جانب ذلك في علم الحديث وحفظه ومعرفة رجاله والتأليف فيه . فهذان هما العلمان : النبات والحديث النبوي الشريف ، اللذان انصرف الى تحصيلهما اكثر من غيرهما وقضى في البحث فيهما معظم عمره . وقد قدم لسان الدين إبن الخطيب تفسيراً لطيفاً في سبب اهتمام ابي العباس بهذين العلمين سوية بقوله « قام — ابو العباس — على الصنعتين لوجود القدر المشترك بينهما وهما الحديث والنبات ، اذ موادهما الرحلة والتقييد ،وتصحيح الاصول ، وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الاديان والابدان ،وغير ذلك»(٤٥). وعلى الرغم من صحة هذا القول من حيث اتفاق العلمين في منهج تحصيلهما وضبطهما ، الا انه ليس هذا هو تماماً ماحدا بأبن الرومية الى الجمع بين هذين العلمين والتبريز فيهما دون سائر العلوم ، بل هي ظروف ابي العباس الخاصة وظروف بلاد الاندلس والمغرب في وقته ، فعلمه بالأعشاب والنباتات تأتي له بتوارث المهنة عن ابيه وجده ، وكانت الصيدلة حرفة له ومصدر عيش (٤٦) فهي لم تأت اتفاقاً او عرضاً . اما دراسته للحديث والانكباب على ضبطه وحفظه فقد تأتى من تقدم علم الحديث في عصره على ماسواه من علوم الدين بعد القرآن الكريم ، دون غيرها من العلوم الدينية او النقلية بحكم سببين رئيسيين .اولهما ،ان الشيوخ في عصره اتجهوا

(٤٤) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص١٢١ ، وهو يقول «وهناك قعد في دكان لبيعه —العشب الطبي — وهناك رايته ولقيته غير مرة» يجب التذكر بان ابن الابار ولد سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩
(٤٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص٢١٥ .
(٤٦) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٢ ، ص١٤٢٦ .

الى قراءة القرآن والسنّة لانهم وجدوا فيهما عزاءً عما صارت اليه البلاد ، نتيجة استقواء الممالك المسيحية الشمالية ، فكانت السنّة كالخيط يربطهم الى اجيال الاسلام الاولى ، ومن هنا الاهتمام بالسند في الحديث ، ذلك الخيط المتصل بالرسول (ص) (٤٧) . اما السبب الثاني : فهو ذلك الاتجاه الرسمي الذي تنامى بعد سيطرة الموحدين على الاندلس والقائم على رد الناس الى القرآن اولا ثم كتب الحديث ، اي العودة الى الاصول وترك فروع الفقه واختلافات مسائله ونبذها (٤٨) كما سيتضح لنا مع مسيرة البحث . وهكذا هيأت الظروفُ وجهة ابي العباس في تحصيل العلمين المذكورين .

يبدو ان تحصيل ابي العباس لمادة العلمين المذكورين جاء متزامناً ، اي ان اهتمامه في التحصيل لم ينصرف الى احدهما اولا ثم الى الاخر بعده ، بل كان كلما واتته الفرصة تابع هذا العلم ، فاذا ماحالفته الفرصة لجمع اطراف العلم الثاني في الوقت نفسه عاناه وجمعه ، فهو تارة يجمع علم النبات ، وينتقل بين المدن والريف مشاهداً للاعشاب على الطبيعة فاذا ماحل في احدى الاماكن او المدن ممن اشتهر بعض محدثيها لازمهم واستجازهم وحدث عنهم . ومن هنا فان تحصيله للعلم يجب تتبعه على هذا الاساس وليس من خلال فصله عن بعضه .

لقد بدأ ابو العباس في تكوين نفسه ثقافياً في بلاده الاندلس ، فاتصل بشيوخ عصره فيها ، وقد عدّد هو لنا مجموعة منهم كابي البركات عبد الرحمن إبن داود الزيزاري وابن عربي وابن الجد واخرين (٤٩) . وربما كان اشهر

---

(٤٧) حسين مؤنس : شيوخ العصر في الاندلس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص٩٩ .

(٤٨) انظر التفاصيل لدى المراكشي : المعجب ، ص ٤٠٠–٤٠٢ ، وكذلك عبدالله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٣٠٨– ٣٠٩.

(٤٩) انظر اسماء شيوخه كلهم لدى المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٨–٥١٠ .

هؤلاء الذين اخذ عنهم العلم هو محمد بن عبدالله بن الجد الفهري (ت ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م) وهو ابن مدينته ، اشبيلية ، الذي كان فقهياً متبحراً ، وقد قيل عنه انه انتهت اليه الرياسة في الحفظ والفتيا مما زاد من مكانته لدى حكام عصره فاستشاروه وكان كما قيل «فقيه الاندلس ، وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مُدافع ولا مُنازع ، لايدانيه احد في ذلك ولا يجاريه ..» (٥٠) . وقد تنقل ابو العباس بين مدن الاندلس الاسلامية الاخرى يستمع الحديث ويحصل الإجازات عن الشيوخ ، والاشارة إلى انه ذهب إلى قرطبة لهذا الغرض واضحة (٥١) ، اما غرناطة «فقد دخلها غير ما مرّة لسماع الحديث وتحقيق النبات ، ونقر عن عيون النبات بجبالها» (٥٢) ، وكذلك فعل في بقية المدن ، ويتبدى اثر تجواله في مدى سعة اطلاعه على نباتات الاندلس من خلال ماورد من اشارات فيما تبقى من نصوص كتابه (الرحلة) (٥٣) إلى اقليم الشرف في ظاهر اشبيلية (٥٤) ، وجبل شلير (سيرانيفادا) عند غرناطة (٥٥) ، ومدن جيان ورندة وجبالها (٥٦) ، وجبال غلزا شرقي الاندلس (٥٧) .

ثم كان توجه نظر ابي العباس إلى بلاد العرب والاسلام خارج الاندلس، فكانت له اول رحلة إلى المغرب ، عندما كان عمره ما بين التاسعة عشر والتاسعة والعشرين من العمر ، بعد سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) حيث جاز مضيق جبل طارق إلى عدوة المغرب ، إلى مدينة سبتة ، لكي يلتقي بابي محمد بن

---

(٥٠) ابن الابار : التكملة ، ج٢ ، ص ٥٤٢ .
(٥١) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص ٤٨٨ .
(٥٢) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص٢٢١ .
(٥٣) ضاع كتاب (الرحلة) لابي العباس ابن الرومية كما ضاعت بقية كتبه ، ولم يبق منه الا مقتبسات ضمنها ابن البيطار ، العشاب المشهور ، في كتابه الشهير «الجامع لمفردات الادوية والاغذية» وسنشير اليه بالتفصيل لاحقاً .
(٥٤) ابن البيطار : الجامع ، ج٤ ، ص ٣٢ .
(٥٥) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٧ .
(٥٦) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٣٧
(٥٧) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص١٦ .

محمد الحجري (٥١٢ – ٥٩٢هـ/١١١٨ – ١١٩٦م) الذي كان «اية في الحفظ والعلم والزهد في الوظائف والاجتهاد في الاقراء» (٥٨) وكان قد حل سبتة بعد سنين من التنقل في بلاد الاندلس ، ولكن ابا العباس لم يحظ بلقائه عند عبوره اليه (٥٩) فعاد ادراجه ، وربما كان ذلك لانه وصل في الوقت الذي كان فيه الحجري قد استدعي من قبل الخليفة الموحدي ابو يعقوب إلى مراكش لاسماع الحديث حيث بقي فيها فترة قبل ان يعود إلى سبتة لكي يقضي بقية حياته فيها (٦٠) . وخلال فترة عودته كتب إلى ابي العباس مجيزاً له (٦١) .

صلته بالمذهب المالكي وتحوله إلى المذهب الظاهري :

يبدو جلياً ان ابا العباس نشأ على المذهب المالكي ، وانه اهتم بدراسته وتحصيله ، كما اهتم بدراسة علم الحديث وعلم النبات وتحصيلهما ، وربما كانت دراسته على العالم الشهير ابن الجد في الاغلب هي دراسة الفقه المالكي لما عرف عن هذا الشيخ من رسوخ باعه في الفقه المالكي دون الحديث كما يخبرنا ابن الابار بقوله عنه « فقيه الاندلس ، وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مدافع ولامنازع لايدانيه أحد في ذلك ولايجاريه .. مع اشتغاله بالتدريس والاسماع وانه لم يكن الحديث شأنه» (٦٢) . الا ان دراسة ابي العباس للفقه المالكي كانت اكثر تركيزاً واطول امداً مع شيخ اخر من شيوخ عصره المبرزين في المذهب المالكي ، المتبحرين فيه ، وهو محمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن زرقون (٥٣٨ – ٦٢١هـ/١١٤٣ – ١٢٢٤م) وكان ممن سكن

---

(٥٨) مؤنس : شيوخ العصر ، ص١٠٠ .

(٥٩) المراكشي : الذيل ، س٢ ، ق٢ ، ص٤٨٨–٤٨٩ .

(٦٠) عنان : عصر المرابطين ، ق٢ ، ص ٦٥٣–٦٥٤ .

(٦١) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٨ .

(٦٢) ابن الابار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٥٤٢ .

اشبيلية ونسب اليها (٦٣) . ومن هنا كانت فرصة ابي العباس في ملازمته والاخذ عنه مدة طويلة من الزمن (٦٤) . وقد عرف عن هذا الشيخ انه كان حافظاً مبرزاً ، شديد التعصب للمذهب المالكي منافحاً عنه ، الا انه لم يكن له بصر بالحديث باعترافه هو (٦٥) . ورغم انه قد اشير إلى طول ملازمة ابي العباس له ، الا ان اياً من مصادرنا لم يحدد طول تلك المدة ولا زمن انتهائها ،اذ اننا نعلم بان ابا العباس ترك استاذه لينحاز إلى المذهب الظاهري ، مذهب ابن حزم الاندلسي (٦٦) ،نائياً عن اتجاه استاذه الذي يبدو من عنوان احد مؤلفاته ، وهو (المعلى في الرد على المحلى والمجلى لابن حزم)(٦٧) ، بانه كان ناقداً للمذهب الظاهري ولابن حزم ، ومع مرور الوقت ازداد انحياز ابي العباس بن الرومية إلى المذهب الاخير (٦٨).وليس لدينا ما يبرر هذا الانعطاف الجذري وهذا الانفصال من قبل التلميذ عن استاذه ، فالمصادر القديمة ساكتة تماماً عنه،الا ان هناك اموراً تتعلق بتوجهات السلطات الرسمية في الناحية الدينية مما يمكن ان يسهم في القاء بعض الضوء على هذا الموضوع . فمنذ تأريخ ولادة ابي العباس ، بل وقبله بقليل ، كان الموحدون قد بدأوا بالتأكيد على ضرورة العودة الى الاصول في استخلاص الاحكام الفقهية ، وترك الاجتهادات والفروع القائمة على القياس والرأي ضمن المذهب المالكي ، وهو المذهب المعروف شيوعه في الاندلس والمغرب ، بل كانت تلك الرغبة من قبل الموحدين صارمة جداً احياناً ، من ذلك انه في سنة

(٦٣) عنان : عصر المرابطين ، ق٢ ، ص٦٥٩ . كذلك عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين. مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٦٠ ، جا١ ، ص ٢١٩ :

(٦٤) ابن الابار : التكملة ، جا ، ص١٢١.والمراكشي: الذيل ، س١، ق ٢ ، ص٥١٢

(٦٥) ابن الابار : التكملة ، ج٢ ، ص٦١٦ .

(٦٦) هو ابو محمد علي بن احمد بن حزم (٣٨٤-٤٥٦هـ/٩٩٤-١٠٦٤م) فقيه واديب ومؤرخ ولغوي و فيلسوف . ولد بقرطبة وتوفي في لبلة في الاندلس . كحالة : معجم ، ج٧ ، ص ١٦-١٧ .

(٦٧) انظر مؤلفاته الاخرى لدى كحالة : معجم المؤلفين ، ج١١ ، ص٢١٩ .

(٦٨) ابن الابار : تكملة ، جا ، ص١٢١.

(٥٥٠هـ / ١١٥٥ م) امر الخليفة الموحدي الاول ، باحراق كتب الفقه ورد الناس الى كتب الحديث لاستنباط الاحكام (٦٩) . ورغم ان ذلك لم يتم فأنه دونما شك اثر في توجه الدراسات الدينية بأتجاه الحديث والظاهر ، خاصة ان الخليفة عمم تعليمات بهذا الخصوص الى كل طلبة العلم في المغرب والاندلس (٧٠) ، وعلى الرغم من ان ابنه وخليفته ، يوسف ، تعصب لفكرة ابيه وحاول تنفيذها ، الا انه لم ينه تماماً كتب الفقه المالكي (٧١) ، حتى ليروى انه قال للشيخ ابن الجد ، الذي ذكرنا اخذ ابي العباس العلم عنه ، في احدى مناقشاته معه حول الفقه « يا ابا بكر ليس الا هذا ، واشار الى المصحف ، او هذا ، واشار الى كتاب سنن ابي داود — وكان عن يمينه ، أو السيف .» (٧٢) . اما الخليفة الثالث يعقوب فقد نفذ رغبة أبيه وجده ، وامر باحراق كتب مذهب مالك ، ويقول شاهد عيان « لقد شهدت منها — اي تلك الكتب — وانا يومئذ بمدينة فاس مايؤتى منها بالاحمال ، فتوضع ويطلق فيها النار » (٧٣) . كما أنه امر بترك الاشتغال بالرأي والخوض فيه ، وتوعد بمعاقبة المخالفين (٧٤) . ويبدو ان هذا كله دفع بالكثير من طلاب المعرفة عن سبيل دراسة الفروع الفقهية ، ومن ثم التوجه الى القرآن والسنة ، اما انسجاماً مع التيار الرسمي الذي له بعض مايبرره لتفشي الخلافات ، او ابتعاداً عن الزج بأنفسهم في اشكالية مخالفة الحكام الموحدين . كل ذلك في مدة شباب ابي العباس نفسه ، الذي توجه للحديث والظاهر اكثر من الرأي والقياس بحكم احد السببين المذكورين ككثيرين غيره . اما اولئك الذين لم ينسجموا مع الاتجاه الرسمي فقد نالتهم

(٦٩) علام : الدولة الموحدية ، ص٣٠٨ .
(٧٠) المرجع نفسه ، ص٣٠٨ .
(٧١) نفس المرجع والصفحة .
(٧٢) المراكشي : المعجب ، ص ٤٠٢ .
(٧٣) المصدر نفسه ، ص٤٠٠ روى ذلك المراكشي نفسه صاحب المعجب .
(٧٤) المصدر نفسه ، ص ٤٠١ .

يد العقاب ، ومنهم ابن زرقون نفسه ، شيخ ابي العباس بن الرومية ،حيث انه كما يقول اليافعي (ت ٧٦٨ هـ /١٣٦٦ م) « كان من كبار المتعصبين للمذهب فاوذي من جهة بني عبد المؤمن – الموحدين – لما ابطلوا القياس والزموا الناس الاخذ بالاثر والظاهر »(٧٥) ، وجرى اعتقاله في مدينة سبتة ، ثم اطلق سراحه فعاد الى اشبيلية ، حيث توفي ودفن سنة (٦٢١هـ / ١٢٢٤ م) (٧٦) . ويظهر بان الافتراق بين التلميذ والشيخ حصل خلال فترة محنة الشيخ تلك (٧٧) . ولم يعد ابي العباس الى المذهب المالكي بعد ذلك التحول بل ازداد اعتقاداً بالمذهب الظاهري حتى عد « متعصباً له » (٧٨) . بل كان ، في عبارة احدهم « ظاهري المذهب ، منحياً على اهل الرأي ، شديد التعصب لابي محمد ابن حزم » (٧٩) . وبذل في سبيل ابراز المذهب الظاهري واعمال ابن حزم جهوداً كبيرة « وعنه انتشرت تصانيفه – اي تصانيف ابن حزم – اذ كان قد عني بها كثيراً واستحسنها وانفق عليها اموالا جسيمة حتى استوعبها جرماً فلم يشذ عنه منها الا ما لا خطر له ان كان قد شذ ، مقتدراً على ذلك معاناً عليه بجدته ويساره » (٨٠) .

رحلة ابي العباس بن الرومية إلى المشرق :

كلل ابو العباس تحصيله العلمي برحلته الى المشرق ، والرحلة من قبل الاندلسيين والمغاربة الى المشرق ليست شأناً غريباً ، بل امر متكرر ، وذلك

---

(٧٥) عبدالله بن سعد اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان ، مؤسسة الاعلمي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٠ ، ج٤ ، ص٤٩ .

(٧٦) كحالة : معجم المؤلفين ، ج١١ ، ص٢١٩ .

(٧٧) كي لا تلتبس الصورة على القارىء تجب الاشارة الى ان ماذكرناه لايعني معاداة الموحدين للعلم ، بل رفض الخلافات المذهبية ، ذلك انهم شجعوا العلوم التطبيقية من بناء وعمارة وطب وصيدلة ..الخ. ، للتفاصيل انظر اشباخ : تاريخ الاندلس ، ص ٤٩٥ .

(٧٨) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص ١٢١ .

(٧٩) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٥١٢ .

(٨٠) نفس المصدر والصفحة .

سعياً منهم لاداء فريضة الحج الى بيت الله اولا ، ولاخذ العلم من شيوخ المشرق ومدارسه ثانياً .

بدأ ابو العباس رحلته من الاندلس سنة (٦١٢ هـ /١٢١٥ م) في وقت تعرضت فيه بلاده الى هجمات عنيفة من قبل الممالك الاسبانية المسيحية ، وهددت ضواحي مدينته اشبيلية نفسها (٨١) . ولكن ذلك لايعني اطلاقاً ان ابا العباس خرج من بلده الى المغرب ثم الى المشرق جرياً وراء حظوظ جديدة في اراض اكثر امناً واتدف عيشاً ، او فارق فرقاً من مستقبل غامض في مدينته ، ذلك ان فرصاً وافرة واتته في المشرق للبقاء والثراء (٨٢) ولكنه آثر عليها العود الى اهله وبلده بعد نيل بغيته من رحلته وتحقيق هدفه . والملاحظ بشكل عام فان علماء الاندلس رغم محنة العدوان الاسباني المسيحي عليهم والاضمحلال السياسي في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، فانهم ظلوا عاكفين على الدراسة والسماع وتواتر العلم والاقراء والتأليف ، يتنقلون بين المدن لسماع حديث اونسخ كتاب وكأنهم في بلاد في غاية الاستقرار ولاتحوم حولها الاخطار (٨٣) .

استغرقت رحلة ابي العباس ثلاث سنوات (٨٤) ، كان هدفه الاساس من القيام بها هواداء فريضة الحج (٨٥) ، ولكنها في الوقت نفسه كانت رحلة علمية قل نظيرها ، فلقد لقي في رحلته تلك جملة كبيرة من اعلام علماء الحديث في كبريات مدن المغرب والمشرق في ذلك العصر من رجال ونساء ، فأخذ عنهم واستجازهم ، ثم اسمع بعضهم بدوره (٨٦) ، ودون

---

(٨١) عنان : عصر المرابطين ، ج٢ ، ص ٣٥٤

(٨٢) انظر ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ص٥٣٨ . وسوف نفصل ذلك لا حقاً

(٨٣) مؤنس : شيوخ العصر ، ص١٠٢ .

(٨٤) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٩ .

(٨٥) نفس المصدر والصفحة ، وكذلك ابن أبي اصيبعة : عيون ، ص ٥٣٨ .

(٨٦) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص ٤٨٩-٥١٢ .

تلك الاسماء في (برنامج) خاص (٨٧) ، وفي نفس الوقت اهتم بدراسة اعشاب المغرب والمشرق ، فبحث عنها في اطراف المدن التي حل بها وبضواحيها ، وكون ملاحظاته الخاصة عنها ، وسأل سكان تلك البقاع عن تسمياتهم لها واستخداماتها الطبية عندهم ، وناقش في اكثر من مناسبة علماء النبات في تلك البلاد فيما يتعلق بنباتات واعشاب بلادهم وبلاده (٨٨) ثم وضع حصيلة تلك التجربة مجتمعة في كتاب فريد في النبات اسماه (الرحلة) (٨٩) .

عبر ابو العباس البحر الى المغرب ، في مبتدأ رحلته ، سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م) واول الاماكن التي نعلم يقيناً انه حل به هو بجاية (٩٠) ، وربما كان اول نزوله على الساحل الأفريقي في هذه الرحلة على ساحل هذه المدينة التي هي بمثابة ميناء حصين في لحف جبل تركب منها السفن الى الجهات الساحلية المختلفة للبحر المتوسط (٩١) ، وقد اخذ الحديث في هذه المدينة عن محدثين على الاقل (٩٢) . كما يبدو انه تجول في الريف الجبلي المحيط بالمدينة لذكره اسماء نباتين على الاقل مما ينبت بجبالها دون ذكرها يقطع برؤيته لها في مواضعها (٩٣) ، وينطبق هذا الشيء على ذكره لنباتات او اعشاب في المغرب الاقصى وسبتة (٩٤) ، دون ذكر زيارة تلك الاماكن في هذه الرحلة . ويتضح بأنه تجول في اطراف الاقليم الذي تعد بجاية احدى مدنه الغربية القصوى ؛ وهو اقليم افريقية ، والذي يمتد من بجاية او مليانة أو

(٨٧) نفس المصدر والصفحات .
(٨٨) سوف نأتي على نماذج من ذلك اثناء البحث .
(٨٩) سوف نتحدث عن هذا الكتاب بتفصيل اكبر عند الحديث عن اعمال ابو العباس .
(٩٠) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٤٨٩ .
(٩١) ياقوت بن عبدالله الحموي : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ج١ ، ص ٣٣٩ .
(٩٢) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٤٩٠ .
(٩٣) ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص٢٠ ، ١٣٤ .
(٩٤) المصدر نفسه ، ج١ ، ص٥ ، ٦ .

طنجة الخضراء غرباً الى الاسكندرية شرقاً ، عبر تونس والقيروان والمهدية وطرابلس وبرقة ، هذا على السواحل اوقريباً منها ، اما عمقاً فيمتد الأقليم من البحر الى الرمال التي في اول بلاد السودان في الداخل (٩٥) ، وفي تجواله في اطراف هذا الاقليم ، من بواد وجبال ، جمع معرفة طيبة عن اعشابها الطبية ذكرها في اكثر من موضع في (رحلته) بمسمياتها العربية او البربرية (٩٦) ، وحل بمدينة تونس والتقى ببعض علمائها مجرد لقاء دون ان يستجيزهم بالتحديث عنهم (٩٧). كما اخذ عن احد اهل تونس معلومات عن بعض انواع الحجارة (٩٨) .ثم كان مروره بالقيروان والمهدية وقابس وطرابلس وبرقة في طريقه الى مصر ، وشاهد ماينبت فيها او في اطرافها من اعشاب ونباتات واشار الى ذلك مراراً في (الرحلة) (٩٩). الا انه كما يبدو لم يلتق بمن يستحق الذكر من العلماء والمحدثين في هذه الأماكن بدليل عدم وجود ذكر لها أو لاحد من اهلها في (برنامج شيوخه) .

ثم كان وصول ابي العباس الى ارض مصر ، حيث دخل الاسكندرية سنة(٦١٣هـ/١٢١٦م)(١٠٠)وفيها التقى بجملة من العلماء والمحدثين،وبعض العلماء الاندلسيين ، اشهرهم الرحالة محمد بن احمد ابن جبير صاحب الرحلة المشهورة (١٠١) ، ولابد انه افاد منه ببعض مايتعلق بأمور الرحلة وبعد حصوله على اجازات التحديث من علماء المدينة طوف في ضواحيها

---

(٩٥) الحموي : معجم ، جا ، ص ٢٢٨ .

(٩٦) كأمثله انظر ابن البيطار : الجامع ، جا ، ص ١٥ ، ج٢ ، ص٣٢ ، ١٢٤ .

(٩٧) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٤٩٠ .

(٩٨) ابن البيطار : الجامع ، ج٢ ، ص٨ .

(٩٩) انظر المصدر نفسه ، جا ، ص٥ ، ٥٢ ، ١٧٣ . ج٣ ، ص١٤٨ ، ج٤ ، ص ٣٢ ، ١١٠ ، ١٤٠ ، ٢١٠ .

(١٠٠) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ص٥٣٨ .

(١٠١) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٤٩٠ .

واطرافها كعادته لمعاينة الاعشاب والنباتات ، ورغم انه لم يصل الينا فيما وصل من متبقيات نصوص (الرحلة) سوى اشارة واحدة الى نبات من الاسكندرية (١٠٢) الا انه اشار كثيراً جداً الى نباتات مصر بشكل عام (١٠٣). ويبدو انه لم يطل المقام بالاسكندرية حيث يذكر بأنه لم يسعفه الوقت ليستجيز من كل من عرفه من محدثيها فأجاز له بعضهم كتابة بعد مغادرته (١٠٤) . وربما كان وراء عدم اطالته المقام بالاسكندرية ، فضلا عن ضيق الوقت امامه للحاق بموسم الحج ، دعوة الملك العادل ابي بكر إبن ايوب ، اخي صلاح الدين وسلطان بلاد الشام ومصر له ، للقدوم عليه في القاهرة ، حيث صادف انه كان موجوداً فيها اثناء قدوم ابي العباس الى مصر (١٠٥) . وقد تلقاه في القاهرة واكرمه ، ويخبرنا المؤرخ الطبيب الثقة ابن ابي اصيبعة ان العادل « رسم ان يقرر له - اي لابي العباس - جامكية وجراية (راتباً ثابتاً) ويكون مقيماً عنده . فلم يفعل . وقال : انما اتيت من بلدي لاحج ان شاء الله وارجع الى اهلي » (١٠٦) . وهذا العرض من قبل العادل انما يدل على مكانة ابي العباس العلمية وذيوع شهرته ، فقد كان للملك العادل الكثير من الاطباء والعشابين المشهورين ولم يكن ليطمح الى مرافقه ابي العباس له مع وجودهم لولا ارتفاع قدر علمه . . خاصة اذا علمنا ان خير عشابي العصر في المشرق انذاك وهو رشيد الدين ابو المنصور الصوري (٥٧٣ - ٦٣٩ هـ/ ١١٧٧ - ١٢٤١ م) كان في صحبته في مصر انذاك ؛ وهو ماعرف عنه من معرفته بادوية واعشاب لم يعرفها من قبله وبمنهجه المتميز بتصوير هيئات النباتات في بيئاتها في جبال لبنان وبلاد الشام، وبكونه

---

(١٠٢) ابن البيطار : الجامع ، ج٢ ، ص٨١ .

(١٠٣) كمثلة ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص٥ ، ٣٣ ، ١٥٩ ، ج٢ ، ص٨١ ، ج٤ ، ١١٥ ، ١٤٠ .

(١٠٤) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٤٩٠ .

(١٠٥) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ٥٣٨ .

(١٠٦) نفس المصدر والصفحة .

اعلم اطباء الشام بالادوية المفردة (١٠٧) . وطالما ان ابا العباس ، رغم رفضه عرض الملك العادل ، قد رافق الملك العادل هذا واقام عنده مدة من الزمن واعد له بعض الادوية النادرة (١٠٨) و لابد انه قد التقى بالعشاب الصوري المذكور وتداول معه في المعرفة النباتية والاعشاب ، كما فعل في اماكن اخرى اثناء رحلته ،رغم عدم وصول خبر لقاء الاثنين عن طريق اي من مصادرنا المتوفرة .

ثم كان رحيل ابي العباس عن مصر ميمماً شطر مكة ، ولايظهر لنا انه سلك الطريق البحري ،ونعني به النزول مع مجرى نهر النيل الى الجنوب من مصر حتى مدينة قوص ، ثم التشريق عبر الصحراء الشرقية الى ميناء عيذاب على ساحل البحر الاحمر ومنه الى جدة عبر البحر وهو الطريق الذي سلكه ابن جبير قبل حوالي(٣٥) عاماً (١٠٩) ، ولكن يبدو انه توجه براً من القاهرة الى جنوب بلاد الشام ، والى القدس بالذات حيث هناك مايشير الى وجوده فيها سنة (٦١٣ هـ / ١٢١٦م) ولابد ان ذلك كان قبل ادائه فريضة الحج في العام نفسه (١١٠) . كما ان في اشاراته في العديد من المرات الى بيت المقدس ونباتات ضواحيه وجباله وملاحظات اخرى له عنه (١١١) مايدل على معرفة عيانية كانت من معايشة للمكان مدة ليست بالقصيرة . وفيها وصلته بعض الاجازات بالتحديث ارسلت اليه من اماكن اخرى (١١٢) . غادر ابو العباس القدس نحو الجنوب الى مكة ، والأغلب انه سلك طريق ايلة جنوباً الى الحجاز على الطريق الساحلي للبحر الاحمر الى

---

(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ٧٠٠-٧٠١ . كذلك كحالة : معجم المؤلفين ، ص١٦١ .
(١٠٨) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ص ٥٣٨ .
(١٠٩) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣٢-٥٣ .
(١١٠) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٥٠١ .
(١١١) كامثلة انظر ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص١١٢ ، ١٧٣ ، ج٢ ، ص١٢ ، ج٣ ، ص٩٥ ..
(١١٢) المراكشي : الذيل ، س١ ق ٢ ، ص٥٠١ .

هدفه ، والذي يدفع الى اعتقاد سلوكه هذا الطريق هو انه الطريق التجاري وطريق الحج بين بلاد الشام ومدن الحجاز في ذلك العصر (١١٣) . كما ان بعض الملاحظات التي قدمها ابو العباس نفسه في بعض شذرات (الرحلة) تؤكد هذا ، وتوحي بأنه سلك ذلك الطريق الى الحجاز . مكة والمدينة ؛ ولم يكن بعيداً عن الساحل ؛ فهو يقول عن احد النباتات «الإسرار .. وهو شجر ينبت في اقاصي البحر ، وفي السواحل من بحر الحجاز . رأيه بمقربة من كفافة من طريق ايلة لمن يريد الخوزا (او الحوزة) .. سماه لي بعض اعراب الساحل بما سميته به» (١١٤) . والخوزا او الحوزة هي شعب او واد في الحجاز (١١٥) . وواضح ان ابا العباس قد افاد من وجوده في الحجاز فتجول في انحائه وتعرف على العديد من اعشابه ونباتاته سائلا الاعراب عن أسمائها واستخداماتها مقارناً إياها بما سبق له معرفته من اشباهها او نظائرها في اماكن اخرى سبق بحثه عنها فيها (١١٦) ، فدخل الأودية والجبال هنا وهناك وبالاخص قرب مكة ، فكثيراً ما نجد له اشارات يستشف منها ماذكرناه ، كقوله « شجر معروف عند العرب بمكة » (١١٧). او كقوله « رايته بمقربة من قديد ، وهو بجبال مكة كثير جداً » (١١٨) . او قوله عن نبات اخر وهو شجرة الزقوم «وسماها لي بعض اعراب عرفه (١١٩). كما اشار الى تجواله في ضواحي المدينة للغرض نفسه يختصر ذلك بقوله عن نبات من النباتات « رأيته بين المدينة والبقيع . وسألت عنه

(١١٣) انظر Historical Atlas of the Muslim Peoples, Amsterdam, 1957· pp. 16–17.

(١١٤) ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص٣٣ .

(١١٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٣١٩ ، ٤٠٤ .

(١١٦) كامثلة انظر : ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص٣٣ ، ٥٧ ، ١٠٧ ، ج٣ ، ص٨٢.

(١١٧) ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص١٠٧ .

(١١٨) المصدر نفسه ، ج١ ، ص٩٥ .

(١١٩) المصدر نفسه ، ج٢ ص ١٦٦ .

بعض الاعراب فسماه وعرفه .. » (١٢٠) ، اما الاشارات الى ملاحظاته ومشاهداته للنبات في الحجاز بشكل عام فكثيرة مما يدل على مابذله من جهد في البحث والتقصي والتجوال من اجل جمع المعلومات عن نباتات هـذا الاقليم العربي . وكعادته فان أبا العباس لم يقصر جهده على تنمية معرفته النباتية وتوثيقها ، بل اخذ الحديث عمن وجده في مكة من نزلائها ، رغم ان عدد من ذكره منهم كان اثنين فقط (١٢١) .

اثر انتهاء ابي العباس من اداء فريضة الحج غادر الحجاز للتو متوجهاً الى العراق ، وقد مر وهو في طريقه الى بغداد بالكوفة وبابل (الحلة) (١٢٢) . ثم كان وصوله الى بغداد غرة صفر سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م) . وقد سارع بعد وصوله بثلاثة أيام الى بدء سلسلة من اللقاءات مع رجال الحديث المشهورين في عاصمة الخلافة العباسية . وقد ورد ذكر العشرات منهم في (برنامجه) من رجال ونساء ممن سمع منهم او حصل على اجازة بالتحديث عنهم (١٢٣) كما انه اتصل بذوي المعرفة بالعقاقير والاعشاب في بغداد وافاد من معرفتهم وخاصة بنباتات واعشاب المشرق البعيد التي لم يتح له هو رؤيتها ، وفي اشارة له الى لقاء من هذا النوع يقول عن نبات التربد : « التربد بالعراق على الصفة التي تجلب الينا ، وهو مجلوب اليهم ايضاً من وادي خراسان . واخبرني الثقة العارف بالعقاقير ابو علي البلغاري ببغداد انه بحث في البلاد الخراسانية عن صفته وهيئته وورقه فاخبره الجلابون له ان ورقه على هيئة ورق اللبلاب الكبير الا انه مجدد الاطراف » (١٢٤) . او يشير الى نوع من الحجارة ، وهو حجر البارقي فيقول « هو حجر شكله شكل الحجارة

---

(١٢٠) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٢٠١ .

(١٢١) المراكشي : الذيل ، س ١ ق ٢ ، س ١ ق ٢ ، ص ٤٩٠

(١٢٢) ابن البيطار : الجامع ، ج٢ ، ص ١٩ .

(١٢٣) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٤٩٠ — ٤٩٦ .

(١٢٤) ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص١٣٦

المصرية .. اخبرني الثقة عنه ببغداد ، وهو من رآه ولم يعرفه حتى اخبر به وبخواصه العجيبة » (١٢٥) .

ترك ابو العباس بغداد مصعداً مع نهر دجلة باتجاه الشمال ، فحل في تكريت ، وفيها سمع على اثنين من المحدثين (١٢٦) ، ثم سار الى الموصل وسمع الحديث فيها على جملة من رجالها ، وصحب بعضهم ، نخص با لذكر منهم المحدث والمؤرخ الشهير علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بأبن الأثير (٥٥٥ – ٦٣٠ﻫ/ ١١٦٠ – ١٢٣٣م) (١٢٧) ويبدو انه تجول في انحائها بحثاً عن نباتاتها كما انه تحادث مع بعض اهلها بهذا الشأن ، مثال ذلك مااورده من حديث عن نبات العاقول : « هو شوك معروف بالمشرق كله .. وهو كثير بالعراق .. وذكر لي بعض اهل الموصل ان عصارته عندهم تجلو بياض العين والظلمة عنها وهم يستعملونه ايضاً في برودات العين » (١٢٨) .

وليس فيما تبقى من كتابات ابن الرومية ، او غيره ما يشير الى ذهابه الى اربل ، رغم اننا نجد في برنامج شيوخه انه حصل من كوكبوري بن علي ابن بكتكن صاحب اربل واميرها (٥٦٨ –٦٣٠ ﻫ / ١١٩٠ – ١٢٣٢ م)، على السماح بالتحديث عنه بعد ان طلب ذلك منه بوساطة بعض من تقدمه في الرحلة من اصدقائه (١٢٩) .

سار ابو العباس من الموصل قاصداً بلاد الشام ، وفي طريقه مر ببعض مدن الجزيرة الفراتية ،ومما ورد ذكر مروره بها ، مدينة دُنيصر (١٣٠) ،

---

(١٢٥) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ١٢ .
(١٢٦) المراكشي : الذيل ، س١ ،ق٢ ، ج ٤٩٦ .
(١٢٧) المصدر نفسه ، س ١ ق٢ ، ص ٤٩٦ – ٤٩٧ . وبخصوص ابن الا ثير انظر كحالة: معجم المؤلفين ، جـ٧ ، ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .
(١٢٨) ابن البيطار : الجامع ، جـ٢ ، ص٣ .
(١٢٩) المراكشي : الذيل ، س١ ق ٢ ، ص ٥٠٦ .
(١٣٠) المصدر نفسه ، س١ ق ٢ ، ص ٤٩٧ .

وهي مدينة على مسافة فرسخين (حوالي ١٢ كم) . الى الجنوب الغربي من ماردين . والتي كانت في عهد مروره بها قد اصبحت مدينة واسعة كثر سكانها ، وعظمت اسواقها ، بعد ان كانت قبل بضعة عقود من الزمن لاتعدو كونها قرية اعتيادية (١٣١) ، واخذ الحديث من احد رجالها (١٣٢). ثم مر بحران ، وشاهد بها بعض النباتات (١٣٣) ، ثم كان عبوره الفرات الى مدينة حلب من بلاد الشام .

لاغرابة في اتجاه ابي العباس الى بلاد الشام ، فلطالما استهوت بلاد الشام الاندلسيين والمغاربة ورحلة ابن جبير خير تعبير عن ذلك الغرام الذي حمله هؤلاء تجاه بلاد الشام (١٣٤) ،وكما يقول المنجد : « وقل ان رحل الأندلسي الى المشرق ولم يزر الشام . وحتى في اظلم عهودها ، كعهد الفاطميين ، وقد آثرها بعضهم على وطنه ، فاقام بها وتزوج منها وتعلم بها ، او افاد بعلمه اهلها ، ومكث اخرون زمناً فيها ثم عادوا الى بلادهم » (١٣٥) ، ونضيف فنقول انهم عادوا الى بلادهم وفي ذاكرتهم من بلاد الشام اطيب مافيها كما هو حال ابي العباس بن الرومية نفسه (١٣٦) .

حل ابو العباس بحلب ، ولم يحصل له سماع للحديث بها لان من سعى الى لقائه كان مريضاً (١٣٧) ففاته ذلك . ولكنه اطلع على بعض نباتات المكان واستخداماتها الطبية . ويقول في حديث له يسوقه عن نبات المميثا : « ورأيته بالشام على ماوصف . ورأيت منها نوعاً صغيراً جداً ينبت بين

---

(١٣١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٧٨ .
(١٣٢) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٤٩٧ .
(١٣٣) ابن البيطار : الجامع ، ج٢ ، ص ٨٥ .
(١٣٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .
(١٣٥) صلاح الدين المنجد : «دمشق في نظر الاندلسيين» ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، ١٩٥٨ ، مج ٦ . ص ٨٥ .
(١٣٦) انظر إنطباعات ابن الرومية لدى ابن سعيد : اختصار القدح ، ص ١٨١ .
(١٣٧) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٤٩٩ .

الصخور الجبلية . وأهل حلب يستعملونه في علاج العين ويسميها بعضهم الحضض » (١٣٨) . على ان اطرف تجربة له في تلك المدينة هي لقاؤه هناك بالعالم الشهير ومؤرخ سير الحكماء والنحاة القاضي ابي الحسن علي إبن يوسف الشيباني ، المعروف بأبن القفطي (٥٦٨ ـ ٦٤٦ هـ/١١٧٢ ـ ١٢٤٨ م) ولم يخبرنا ابو العباس بذلك اللقاء ، انما القفطي هو الذي فعل ذلك . فقد دعا القفطي ابا العباس الى داره . ويبدو انهما تحادثا في امور شتى ، من بينها ما اخبر ابو العباس به صاحبه من انه حمل معه في بداية رحلته من اشبيلية حتى تونس كتاب « تعليم المتعلم» في اربعين مجلداً ، وهناك اخذه منه وزير الموحدين في تونس بطريقة فيها بعض العسف الشيء الذي اغضب ابن القفطي (١٣٩) . كما يقول ابن القفطي « اجتمعت به وتفاوضنا في ذكر الحشائش» (١٤٠) وكلاهما ممن عرف بطول باعه في هذا العلم ، ولايتوفر لدينا ، للاسف الشديد ، ماينبئنا بما دار بينهما عن هذا الموضوع (١٤١) ، الا ان المقري يورد نصاً لحوار بين احدهم وابن الرومية يمكن ان يكون الطرف المجهول فيه هو ابن القفطي ومفاده « قال بعضهم : اجتمعت به ، وتفاوضت معه في ذكر الحشائش ، فقلت له : قصب الذريرة قد ذكر في كتب الطب ، وذكروا انه يستعمل منه شيء كثير ، وهذا يدل على انه كان موجوداً كثيراً ، واما الآن فلايوجد ،ولا

(١٣٨) ابن البيطار : الجامع ،جـ٤ ، ص ١٢٤

(١٣٩) جمال الدين علي بن يوسف بن القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة ، تح محمد ابو الفضل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ . جـ٤ ،ص ١٨٦ ـ١٨٧ ، وقد تضمنت الروايه تفصيلات اخرى طريفة .

(١٤٠) عمر بن احمد بن النديم : بغية الطلب في تأريخ حلب ، مخطوط ، جـ٢ ، ورقة ٤ ، نقلا عن هامش رقم (١) لمحقق كتاب المنذري : التكملة ، جـ٦ ، ص ٣٣٦ لا يتمم المحقق نقل النص ويكتفي بهذا الجزء منه

(١٤١) يبدو ان هناك تتمة للحوار في بغية الطلب لم ينقلها المحقق كاملة في هامش التحقيق المذكور في (١٤٠).

يخبر عنه مخبر ، فقال (اي ابو العباس) : هو موجود ، وانما لايعلمون ابن يطلبونه ؛ فقلت له : واين هو . فقال : بالاحواز منه شيء كثير » (١٤٢)
ويتضح بأن ابا العباس ترك لدى ابن القفطي انطباعاً جيداً عن علمه بحيث عده اعقل من رأى (١٤٣) ، وهذا يزيد من استغرابنا عندما لانجد ترجمة لابي العباس بن الرومية في كتاب ابن القفطي المشهور «تأريخ الحكماء» فهو لايمكن ان يكون قد تجاهله او جهله ، ولكن اما انه نسيه او ان ملخص الكتاب الزوزني ، حيث ان الاصل لم يصل الينا — هو المسؤول عن ضياع سيرة ابي العباس من الكتاب اثناء الاختصار ، او ان ابن القفطي كان قد انتهى من كتابه قبل لقائه بأبي العباس سنة ٦١٤هـ/١٢١٧ م (١٤٤) .

كانت المدينة التالية بعد حلب هي دمشق ، وفيها سمع على العديد من المحدثين واشهرهم ابن الحرستاني وابن ملاعب وابن العطار وهم من مشاهير محدثي العصر ، ووصلت الينا اشارته مرة واحدة الى دمشق فيما يتعلق بنباتاتها عندما اخبرنا بأن اهل دمشق يسمون شجرة الغبيراء التي لاتثمر الزيزفون (١٤٥) . ولكنه ذكر بلاد الشام بشكل عام في اكثر من مناسبة في احاديثه النباتية . ورغم اننا لانملك تفاصيل من اي نوع عن اقامته في هذه المدينة الا انها كما يبدو قد تركت في نفسه اثراً خالداً (١٤٦) ، كما كانت قد فعلت بالنسبة لمن قبله من الاندلسيين الذين زاروها (١٤٧) .

---

(١٤٢) المقري : نفح ، ج٣ ، ص ٣٥٤ .
(١٤٣) ابن القفطي : انباه ، ج٤ ، ص ١٨٦ . ويضيف في مكان اخر من نفس الكتاب ، بقوله « وهو اثبت من رايت واسكن» ج٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٣٢٤ .
(١٤٤) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ١٨٧ .
(١٤٥) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص ٤٩٧ — ٤٩٨ . وعن نبات دمشق انظر ابن البيطار : الجامع ، ج٣ ، ص ١٤٨ .
(١٤٦) يقول ابن سعيد وهو احد من صحب ابا العباس بن الرومية بعد عودته من رحلته بانه «كان كثيراً ما يطنب في الثناء على دمشق ويصف محاسنها ، فلا انفصل عنه إلا وقد امتلأ خاطري من شكلها فاتمنى ان احل مواطنها...» ، اختصار القدح ، ص ١٨١ .
(١٤٧) المنجد : «دمشق في نظر الاندلسيين» ، ص ٨٥ .

لابد ان ابا العباس بعد تركه دمشق اتجه الى القدس ، لكي يزورها للمرة الثانية ، والذي يجعلنا نعتقد هذا جملة امور ، اولها اننا نعلم انه عاد الى مصر ومنها غادر في طريق عودته الى المغرب (١٤٨) ، بمعنى انه لم يغادر الى وطنه عبر البحر من الساحل الشامي وبالتالي فانه قد توجه براً الى مصر . ثم ثانياً ، فانه طالما قد سلك الطريق البري فلا يعقل ان يكون قد سار بمحاذاة الساحل الشامي جنوباً الى مصر لان الصليبيين كانوا لايزالون يسيطرون على كثير من المدن الساحلية المهمة ، كما انه في فترة وجود ابن الرومية في بلاد الشام كان الصليبيون يجرون استعدادات هائلة لغزو القدس من عكا بعد وصول قوات جديدة اليهم عبر البحر مما دفع بالملك العادل للعودة الى بلاد الشام من مصر في شعبان من السنة للتصدي لهم (١٤٩) ، اضف الى كل ذلك فان ذكر ابي العباس لمدينة القدس عدة مرات في نصوص رحلته ضمن احاديثه النباتية فقط (١٥٠) يوحي بأنه لابد انه قضى فيها مدة تتجاوز كونه قد مر بها مرة واحدة على عجل . من ذلك قوله في نبات ذنب الخروف « رأيته بالبيت المقدس كرمه الله تعالى ويسمونه بذنب الخروف وهو عندهم مجرب في عضة الكلب الكلب » (١٥١) ، ويقول عن نبات البلان « واغصانه يتخذ منها المكانس للطرق ببلاد القدس ونواحيه» ، وربما نستطيع ان نستشف من اشارة اخرى له انه كان فيها وقد تهددها الهجوم الصليبي المحتمل ذلك العام عندما يقول في سياق حديثه عن نبتة معينة «رأيت منها بجبال القدس امنه الله تعالى » (١٥٢) .

---

(١٤٨) المنذري : التكملة ، ج٦ ، ٣٣٥ – ٣٣٦ .

(١٤٩) علي بن محمد بن الاثير : الكامل في التأريخ ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، بلا . ت . ج٩ ، ص ٣١٤ .

(١٥٠) سبقت الاشارة الى هذا الموضوع في هامش (١١١) .

(١٥١) ابن البيطار : الجامع ، ج٢ ، ص ١٢٦ .

(١٥٢) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٢ .

نزل ابو العباس ، وهو في طريق عودته الى بلاده ، من بلاد الشام الى مصر ليحل بها بعض الوقت للمرة الثانية ، وقد التقاه هناك احد محدثي العصر وواحد من اشهر مترجمي رجال القرن ، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (٥٨١ – ٦٥٦ هـ/ ١١٨٥ – ١٢٥٨م) (١٥٣) ، الذي اخبرنا بلقائه به في عودته من الرحلة ، وفي هذه المرة قام هو بتحديث بعض العلماء واجازتهم في الحديث عنه (١٥٤) ، واشهر من اخذ عنه الحديث هناك هذه المرة احد كبار محدثي العصر . محمد بن عبد الغني ابن نقطة (٥٧٩ – ٦٢٩هـ/ ١١٨٣ – ١٢٣١م) (١٥٥) ، والذي بعد ان اخذ عنه وصفه بأنه كان «ثقة حافظاً صالحاً» (١٥٦) ورغم ان المنذري لم يتفق له سماع الحديث عن ابي العباس ، الا انه اخبرنا بأنه بعد انتهائه من التحديث غادر متجهاً الى المغرب (١٥٧) .

ان نص المنذري الاخير يوحي ضمناً بأن ابا العباس عاد الى المغرب ، اي انه سلك طريق قدومه الى مصر نفسه في عودته ، الا ان كراتشكوفسكي ذهب الى التخمين بأن ابا العباس ربما رجع الى الاندلس عن طريق صقلية (١٥٨) ، ولم يبين المصدر الذي دفعه الى مثل هذا التخمين ، واعتقد انه احد نصوص (الرحلة) الذي يصف فيه نبات البردي الموجود في صقلية بتفاصيل تمكننا من تصور مروره بها (١٥٩) ، ولكنها لاتقطع بذلك وعلى اية حال فقد عاد ابو العباس ابن الرومية بعد

(١٥٣) كحالة : معجم المؤلفين ، جـ٥ ، ص ٢٦٤ .

(١٥٤) المنذري : التكملة ، جـ ، ص ٣٣٥ – ٣٣٦ .

(١٥٥) كحالة : معجم المؤلفين ، ١٠ : ١٧٩ .

(١٥٦) الذهبي : سير ، جـ٢٣ ، ص ٥٩ .

(١٥٧) المنذري : التكملة ، جـ٦ ، ص ٣٣٦ .

(١٥٨) كراتشكوفسكي : تأريخ الأدب الجغرافي ، جـ١ ، ص ٣٤٧ .

(١٥٩) ابن البيطار : الجامع ، جـ١ ، ص ٣٤٧ .

رحلة طويلة استغرقت « نحو ثلاثة اعوام » (١٦٠) . فتكون عودته اذاً بحدود عام (٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م) ، وهو في الثالثة والخمسين من العمر :

النشاطات العلمية لابي العباس في الاندلس :

اسهمت رحلة ابي العباس السابقة الذكر في تكوينه العلمي واعداده اعداداً راسخاً . كما عبر عنه المراكشي ، فأنه قد عاد « برواية واسعة وفوائد جمة ، وجلب كتباً نافعة وتصانيف غريبة » (١٦١) . ومسألة جمعه للكتب وشرائها ونسخها على اختلاف مواضيعها وتنوعها مسألة معروفة عنه قبل رحلته ، وقد ساعده على ذلك كونه موسعاً عليه في معيشته ، بحكم حرفته المربحة ، فاذا ما انضاف اليها زهده في الدنيا وحبه البالغ للعلم (١٦٢) امكن ان نتصور مايكون قد جمعه من تلك الكتب النفيسة .

انصرف ابو العباس قبل رحلته وبعدها الى علومه ، ينميها ، ويعلمها ، ويدونها ، والى حرفته ، يمارسها ويرفدها بما يتراكم لديه من علم فيها . ويمكن ان نقسم مناشط الرجل العلمية الى ثلاثة مجالات :

١ ـ ممارسة الصيدلة ومايلازمها من معرفة النبات الطبي . فقد عاد ابو العباس الى دكانه ليمارس حرفته فيه وقد ذكر ذلك اكثر من معاصر له ، كأبن الابار الذي التقى به في ذلك الدكان اكثر من مرة وجالسه فيه (١٦٣) ، وابي الحسن بن سعيد (٦١٠ـ٦٨٥ هـ / ١٢١٣ـ١٢٨٦ م) الذي ذكر مجالسته له في اشبيلية بعد عودته (١٦٤) . وقد كان ناجحاً في حرفته رائج الشهرة فيها يذكر ذلك معاصره واحد اصحاب ولده المراكشي ، فيصف اقبال الناس عليه لحاجتهم اليه مما يستغرق معظم

---

(١٦٠) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٤٨٩ .
(١٦١) المصدر نفسه ، ص ٥١١ .
(١٦٢) المصدر نفسه ، ص ٥١٢ .
(١٦٣) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص ١٢١ .
(١٦٤) ابن سعيد : اختصار القدح ، ص ١٨١ .

وقته « اذ كان حسن العلاج في طبه ، موروه الموضع لثقته ودينه ، امام اهل المغرب قاطبة في معرفة النبات ، وتمييز الأعشاب وتحليتها وعلم منافعها ومضارها ، غير مدافع عنه ولا منازع فيه » (١٦٥) وقد كرر آخرون من معاصريه من اهل المغرب هذه الشهادة (١٦٦) . بل وجاوز ذلك حدود المغرب الى المشرق عندما ذكره مؤرخ الأطباء ابن ابي اصيبعة بأنه « اتقن علم النبات ومعرفة اشخاص الادوية وقواها ، ومنافعها واختلاف أوصافها ، وتباين مواطنها ، وله الذكر الشائع والسمعة الحسنة ، كثير الخير .. محقق آلامور الطبية » (١٦٧) .

ب ـ التحديث والتدريس : فإلى جانب قيام أبي العباس بن الرومية بممارسة حرفته مسخراً علمه من اجل جعلها اكثر كفاءة ونجعاً فانه قام باعطاء الحديث لطالبيه ، وعنه اخذ الكثيرون ، فقد اخذ عنه جمع من اهل بلده ، فضلا عن كثير من الآخرين ممن أخذوا عنه اثناء رحلته في المغرب ومصر والحجاز والعراق والشام (١٦٨) . ولا عجب في ذلك ، فان شهرته كمحدث ليست اقل كثيراً من شهرته عشاباً وقد وصفه مؤرخ عصره . ابن الابار بانه « بصير بالحديث ورجاله ، كثير التنويه به .. » (١٦٩) . وسبق لنا ذكر ماقاله حقه اشهر محدثي عصره في المشرق ، ابن نقطة ، عندما وصفه بالثقة الحافظ الصالح وذلك بعد ان سمع عليه احاديث (١٧٠) . ورغم ان ابن الابار نفسه لم يسمع الحديث عن ابي العباس فقد اخبرنا « ان معظم اصحابه

---

(١٦٥) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١٢
(١٦٦) فهم على سبيل المثال ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص ١٢١
(١٦٧) ابن ابي اصيبعة عيون ، ص
(١٦٨) انظر اسماءهم لدى المراكشي
(١٦٩) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص ١٢١
(١٧٠) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٢ ، ص ١٤٢٦

سمعوه عنه (١٧١).ونجد قائمة باسماء عدد ممن اخذ عنه لدى اخرين(١٧٢). وقد كان ابو العباس سمحاً مع طلبة العلم ، يقدم لهم كتبه كي يفيدوا منها ، بل ربما وهب لهم او لمن طلب منه بعض الكتب النفيسة النادرة الوجود المرتفعة الثمن احتساباً وأملاً في افادة العلم والمتعلمين ، وله في هذا المجال اخبار كثيرة تدل على فضله وكرم طبعه (١٧٣) ، ولهذا فقد احبه تلامذته وخلدوا ذكره ، كما امتدحوه فيما بعد امام طلبتهم (١٧٤).

لم يكتف ابو العباس بتدريس الحديث ، بل درس النبات والاعشاب الطبية ، وقد وصل الينا ذكر تلميذ واحد من تلامذته في هذا العلم ، ولكن جهبذ من جهابذة الاطباء العشابين ، ذلك هو عبدالله بن احمد بن البيطار (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) صاحب كتاب (الجامع لمفردات الادوية والاغذية) الشهير (١٧٥) . ولا نستطيع ان نحدد بدقة مقبولة مدى تأثير أبي العباس في تكوين العالم ابن البيطار ، اكثر من ان نقول انه ربما كان يخرج معه الى ضواحي اشبيلية والى اقليم الشرف المجاور لها يدرسون النبات على الطبيعة(١٧٦) وانه ربما كان يحضر مع معلمه الى دكانه . ولكن فقدان كتب المعلم ابي العباس ومعظم كتب ابن البيطار يجعل من الصعوبة بمكان تلمس اثر الاستاذ في تلميذه ، وان كان بالامكان ان نحتمل ان اثره فيه كان من حيث انضاج معرفة ابن البيطار وتطوير قابليته لفهم ونقد النتاج العلمي النباتي لقدماء اليونان كديسقوريدس وجالينوس (١٧٧) ، وهما مما قيل ان ابن البيطار

(١٧١) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص ١٢١ .
(١٧٢) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١١ .
(١٧٣) نفس المصدر والصفحة .
(١٧٤) كتب احد تلامذته سيرته كما سنعرضه فميا بعد . وانظر إبن الابار : تكملة ، ج ١ ، ص١٢١ ، وكذلك المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١١ حيث يقول « حدثنا عنه شيوخنا .. وكان محدثاً حافظاً ناقداً » .
(١٧٥) كحالة : معجم المؤلفين ، ج٦ ، ص ٢٢ .
(١٧٦) ابراهيم بن مراد : « ابن البيطار» ، مجلة المورد، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٧ ، مج ٦ ، عدد ٤ ، ص ١٢٩ .
(١٧٧) انظر لاحقاً التعريف بهذين العالمين في الحديث عن مؤلفات ابي العباس .

امتلك في معرفة نتاجهما في مجال النبات الطبي وفي نقدهما وشرح معطياتهما مايتعجب منه (١٧٨) ، ذلك ان ابا العباس بن الرومية نفسه كان قد اشتهر بدوره بالمامه بتراث ديسقوريدس وجالينوس النباتي وتأليفه في شرح اعمالهما ونقد ترجمتهما الى العربية (١٧٩) وربما كان ابو العباس هو الذي حفز ابن البيطار ، تلميذه ، للذهاب الى مصر للالتحاق بخدمة الايوبيين فيها لكي يضمن مستقبله لديهم ، بعد ان فضل هو العودة الى بلده على عروضهم له ، ففعل ابن البيطار عندما رحل بعد سنتين من عودة ابن الرومية ، ثم كان التحاقه بخدمة الملك الكامل الايوبي (٦١٥ ــ ٦٣٥هـ / ١٢١٨ ــ ١٢٣٨م) ابن الملك العادل ، في مصر ، لكي يصبح هناك رئيساً للعشابين (١٨٠) .

ولم ينس التلميذ استاذه ، فضلاً عن انه اقتبس منه حوالي الـ (٨٥) مرة في كتابه (الجامع) فانه اشار اليه بقوله «شيخنا»(١٨١)او «شيخنا ومعلمنا»(١٨٢).

جـ ــ التأليف . كان التأليف من جملة انشطة ابي العباس العلمية ، وقد الف عدة كتب ورسائل لم يصل الينا منها شيء للاسف الشديد ، سوى نقولات معدودة من كتاب (الرحلة) تضمنها كتاب (الجامع) لابن البيطار كما ذكرناه . ويغلب على الغرض من مؤلفات ابي للعباس طابع خاص ، وهو انها اما مختصرات او تعليقات او استدراكات او تذييلات او شروح او نقد ، وقد عبر المراكشي عن ذلك خير تعبير في جمل وجيزة عندما قال ان لابي العباس «فيما ينتحله من الفنين تصانيف مفيدة وتنبيهات نافعة واستدراكات نبيلة بارعة ، وتعقبات لازمة ،» (١٨٣) . ولا مزيد على هذا وهو ماتوحي به عناوين مؤلفاته الضائعة ، وهي كما يأتي :

(١٧٨) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ص ٦٠١ .
(١٧٩) انظر لاحقاً مؤلفات ابن الرومية في النبات .
(١٨٠) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ص ٦٠١ .
(١٨١) ابن البيطار : الجامع ، جـ٤ ، ص ٢٠٩ .
(١٨٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ١٢٢ .
(١٨٣) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١٣ .

١ ـ في الحديث النبوي

أ ـ المعلم بزوائد البخاري على مسلم (١٨٤) .

ب ـ نظم الدرر فيما تفرد به مسلم عن البخاري (١٨٥) .

جـ ـ اختصار (الكامل) في الضعفاء والمتروكين . في مجلدين (١٨٦).

والمقصود ه (الكامل) الذي اختصره هنا هو كتاب (الكامل في معرفة الضعفاء والمتروكين من الرواة) لأبي احمد عبدالله بن محمد المعروف بابن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥هـ/٩٧٥م) الذي كان في ستين جزءاً واعتبر من أكمل كتب الجرح والتعديل الذي اعتمد عليه الائمة (١٨٧).

د ـ الحافل في تذييل (الكامل) . وهو تذييل على الكتاب الذي اختصره كما ذكرناه سابقاً ، وقد كان في مجلد واحد ضخم (١٨٨) .

---

(١٨٤) نفس المصدر والصفحة . وكذلك الذهبي : تذكرة ، ج٢ ، ص١٤٢٦ ، وسير ، ج٢٢ ، ص ٥٩ . وكذلك ابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ٢١٩ . ويسميه (زيادة المعلم بزوائد البخاري على مسلم) ويبدو هذا العنوان اكثر تنسقاً في بنائه. وكذلك المقري نفح ، ج٣ ، ص ٣٥٣ . وكذلك مصطفى بن عبدالله حاجي خليفة من كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، طبعة الاوفست – طهران ، ٣٥. ١٩٤٧ ، ج٢ ، ص ١٧٤١ ، وهو يسميه خطأ (المعلم بما رواه البخاري على مسلم).

(١٨٥) المراكشي : الذيل ، س١ ، ٢٥ ، ص ٥١٣ ، وابن الخطيب الاحاطة ، ج١ ،

(١٨٦) ابن الابار : التكملة ، ج١ ، ص ١٢١ ، والمراكشي الذيل ، ١ ق٢ ، ص٥١٣ . وابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ١٢١ حاجي خليفة : كشف : ج٢ ، ص ١٣٨٢ .

(١٨٧) حاجي خليفة : كشف ، ج٢ ، ص ١٣٨٢

(١٨٨) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص ١٢١ ، ويقول ابن الابار ان شيخه ابن الخطاب بن واجب كان يستحسن هذا الكتاب ويثني عليه ، والمراكشي ، س١ ق ٢ ، ص ٥١٣ ، وقد ورد لديه (تدليل) بدل (تذييل) ، والذهبي : تذكرة ، ج٢ ، ص ١٤٢٥ ، وابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ٢١٩ .. وحاجي خليفة : كشف ، ج٢ ، ص١٣٨٢ .

هـ — توهين طرق حديث الاربعين . في اربعين باباً (١٨٩) .

و — اختصار (غرائب حديث مالك) (١٩٠) . و (الغرائب) هذا هو من جمع ابي الحسن علي بن عمر البغدادي الدارقطني (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م) (١٩١) .

ز — التذكرة ، او (برنامج شيوخه) (١٩٢) . يفترض ان تكون هذه التذكرة بمثابة الجدول لاسماء الشيوخ الذين اخذ عنهم ابو العباس الحديث ، ويصفها ابن الابار بعد ان يسميها (فهرسة) بقوله : «وله فهرسة حافلة افرد فيها روايته بالاندلس من روايته بالمشرق» (١٩٣) . ويبدو انه توفي وقد ترك اكثر من نسخة من تذكرته تلك فيها تفاوت واخطاء يدلنا على ذلك قول المراكشي الذي اوردها في كتابه (الذيل والتكملة) عندما تحدث عن ابي العباس «هذا منتهى من انتقاه ابو العباس النباتي من الشيوخ الذين استجيزوا له حسبما مر تفسيره وعلى ماذكرهم في فهارس له منوعة بين بسط وتوسط وقفت منها كذلك بخطه وبخط بعض اصحابه والاخذين عنه» (١٩٤) .

---

(١٨٩) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١٣ . وابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ٢١٩ . وحديث الأربعين هو ماورد ان الرسول (ص) قال وهو « من حفظ من امتي اربعين حديثاً في امر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء» ويقول حاجي خليفة «واتفقوا على انه حديث ضعيف وان كثرت طرقه وقد صنف العلماء في هذا مالا يحصى من المصنفات» وعد حوالي (٦٨) كتاباً عدا شروحها والتعليق عليها ». انظر كشف الظنون ، ج١ ، ص ٥٢ — ٦١ .

(١٩٠) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص١٢١ ، والمراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٥١٣ ، وابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ٢١٩ .

(١٩١) انظر ترجمته لدى كحالة : معجم المؤلفين ، ج٧ ، ص١٥٧ — ١٥٨ .

(١٩٢) ليلاحظ ان تسمية برنامج او فهرسة او تذكرة تغني شيئاً واحداً ولكن الألفاظ اختلفت بأختلاف الأزمنة انظر ابا علي الحسن علي القلصادي : رحلة القلصادي ، تح محمد ابو الأجفان ، الشركة التونسية ، ١٩٧٨ ، من مقدمة المحقق ، ص٦٨ .

(١٩٣) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص١٢١

(١٩٤) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١٠ ، والفهرس فيه من ص ٤٩٠ — ٥١٠ ولكن ينقص منه اسماء الشيوخ الأندلسيين وترد في صفحة اخرى من الترجمة نفسها

فالمراكشي في الحقيقة وفر نسخة محققة من التذكرة في كتابه ، عني بضبطها عناية كبيرة . وعندما يصف لسان الدين بن الخطيب بقوله«وبرنامج مروياته واشياخه مشتمل على مئين عديدة، مرتبة اسماؤهم على البلاد العراقية وغيرها»(١٩٥) فانما يصف ماحققه المراكشي وصححه .

ح- اخبار محمد بن اسحق (١٩٦) .

وله في موضوع الصلاة والآذان .

ط- حكم الدعاء في ادبار الصلوات (١٩٧) .

ي- كيفية الآذان يوم الجمعة (١٩٨) .

٢ - في النبات .

ينطبق قول المراكشي سابق الذكر على نمطية اغراض مؤلفات ابي العباس إبن الرومية في النبات ، وذلك من حيث كونها استدراكات او نقوداً او تعليقات ، باستثناء كتابه الاصيل (الرحلة) الذي سنفصل الحديث عنه بعض الشيء . وهذه المؤلفات هي :

أ- شرح (حشائش) ديسقوريدس و (أدوية) جالينوس والتنبيه على اوهام مترجميها (١٩٩) .

والمعروف ان ديسقوريدس هو طبيب يوناني (٤٠ - ٩٠ ميلادية تقريباً) وهو اشهر العشابين في العالم القديم قبل الاسلام ، وقد الف كتابه

---

(١٩٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ٢١٨ .

(١٩٦) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١٣ ، وابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ٢١٨ . ولا ندري ماكنه هذا العمل .

(١٩٧) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٥١٣ .

(١٩٨) نفس المصدر والصفحة .

(١٩٩) نفس المصدر والصفحة ، وكذلك ابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص٢١٩. ويسميه ابن ابي اصيبعة (تفسير اسماء الادوية المفردة من كتاب ديسقوريدس) ، عيون ، ص ٥٣٨ .

(Materia Medica) بعد تجوال ودرس طويل الاعشاب وخواصها الطبية سنة (٧٠م) (٢٠٠) . وقد ترجم هذا الكتاب ثلاث مرات الى العربية .وسمي (بكتاب الاعشاب)وجرى شرحه عدة مرات كما فسر ونقد من قبل علماء النبات والاطباء المسلمين في اكثر من مناسبة قبل عهد ابي العباس بن الرومية(٢٠١)

اما جالينوس فهو الطبيب اليوناني الشهير (١٢٩ – ١٩٩ ميلادية تقريباً) والذي اشتهر كأعظم اطباء العالم القديم قبل الاسلام والذي ترك عدداً كبيراً من المؤلفات في مختلف فروع الطب (٢٠٢) ، وقد قام العرب المسلمون بترجمة معظمها في بغداد وغيرها ، بحدود القرنين الثالث والرابع الهجريين التاسع والعاشر الميلاديين ، ومنها الكتاب المقصود هنا (كتاب الادوية المفردة) وقد ترجمه حنين بن اسحق العبادي (١٩٤ – ٢٦٠هـ/٨١٠–٨٧٣م) في بغداد (٢٠٣) والواضح ان ابا العباس شرح في كتابه المذكور مادة الكتابين مجتمعة كما نقد بعض صيغ الترجمة والاخطاء التي وقع فيها المترجمون العرب عند محاولتهم ايجاد البدائل العربية للتسميات اليونانية.

ب – التنبيه على اغلاط الغافقي في ادويته (٢٠٤) .

جـ – الرحلة .

---

(200) Encyclopaedia Britannica, Micropaedia, 15th .edition, U.S.A. 1979,. Vol. III p. 563.

(٢٠١) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٥ .

(202) Ency . Brit. Vol. IV. p. 385.

(٢٠٣) محمد بن اسحق بن النديم : الفهرست ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، بلا .ت ، ص٤١٨.

(٢٠٤) لا نعرف شيئاً يذكر عن الغافقي هذا ، وقد ترجم له ابن ابي اصيبعة ترجمة غاية فى الايجاز ، اغلبها مديح للرجل ، دون ذكر تأريخ مولده او وفاته او اسم مؤلفه ويصف الكتاب هكذا «وكتابه في الادوية المفردة لا نظير له في الجودة ولا شبيه له في معناه ، قد استقصى فيه ماذكره ديسقوريدس والفاضل جالينوس بأوجز لفظ واتم معنى . ثم ذكر بعد قوليهما ماتجدد للمتأخرين من الكلام في الأدوية المفردة.. فجاء كتابه جامعاً» ، عيون ، ص ٥٠٠ – ٥٠١ .

بعد كتاب الرحلة اشهر كتب ابي العباس بن الرومية ، وربما كان أحد مصادر شهرته الكبيرة . وقد ورد اسم الكتاب لدى من اشار اليه هكذا فقط (الرحلة) (٢٠٥) دون اضافة . بأستثناء لسان الدين بن الخطيب فهو الوحيد الذي اسماه (الرحلة النباتية) (٢٠٦) وربما كان هذا الكتاب هو آخر ماالفه الرجل ، ويقول ابن الخطيب :« الرحلة النباتية» (٢٠٧) ، وهو الغريب الذي اختص به ، الا انه عدم عينه بعده . وكان معجزة في فنه» (٢٠٨) . وينتابنا الاستغراب كيف ان ابن ابي اصيبعة لم يذكر الكتاب عندما ترجم لابي العباس . وهو المعروف انه تلميذ ملازم لتلميذ ابي العباس ابن البيطار (٢٠٩) بينما يذكر لنا ابن العديم ، وهو معاصر شامي لابي العباس (٥٨٦ – ٦٦٠ هـ/ ١١٩٠ – ١٢٦١ م) بانه وقف على كتاب صنعه ابو العباس بن الرومية في الحشائش ورتب اسماءها على حروف المعجم ووصفه بأنه كتاب حسن كثير الفائدة (٢١٠) ، وهذا الوصف ينطبق على كتاب (الرحلة) لابن الرومية ، اما كيف وصل الكتاب الى ابن العديم فهذا دليل على ان نسخاً منه وصلت الى مصر قبل مرور وقت طويل على تأليف الكتاب ، وربما كان ابن البيطار هو واسطة جلبه فلابد انه حصل على نسخة منه بعد انتهاء تأليف استاذه له ، حيث من الواضح ان ابن البيطار كان يمتلك نسخة منه عندما اعد كتابه (الجامع لمفردات الأدوية) بحكم كثرة اقتباسه منه .

ضاع هذا الكتاب ولم يكن ليصلنا منه شيء لولا ان ضمن ابن البيطار في كتابه (الجامع) مقتبسات منه ، حيث ان كتابه احتوى (٨٥) اقتباساً

---

(٢٠٥) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٥١٣ . وحاجي خليفة : كشف ، ج٢ ، ص ١٤١٩ .

(٢٠٦) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ٢١٩ .

(٢٠٧) يضيف المحقق كلمة (والمستدركة) بعد النباتية دون ذكر مصدره ، فأثرنا تجاهلها .

(٢٠٨) نفس المصدر والصفحة .

(٢١٠) ابن العديم : مخطوط البغية ، نقلا عن هامش محقق المنذري : التكملة ، ج٦ ، ص٣٣٦ . هامش (١) .

من (الرحلة) ترد مبعثرة في انحاء اجزاء كتابه الاربعة ، مشاراً اليها بعبارات مثل «وفي كتاب الرحلة لابي العباس النباتي» (٢١١) او «ابو العباس النباتي في كتاب الرحلة» ، (٢١٢) . او «كتاب الرحلة» فقط ان لم يكتف بذكر اسم المؤلف دون اسم الكتاب . وليس من اليسير ان نشرح منهج الكتاب وبناءه ومحتواه طالما اننا لانمتلك الكتاب بكامله ، ولا نعلم كم تكون مقتبسات ابن البيطار من حجم الكتاب الاصلي ، اضف اننا لا نعلم هل ان اقتباسات ابن البيطار كانت اجزاءاً من قطع اكبر حجماً ام انها نصوص تمثل كل ماقاله ابو العباس بخصوص الموضوع المقتبس النص من اجله .
ومع ذلك يمكن ايجاز الملامح الرئيسة للكتاب كالاتي :

(الرحلة) هي خلاصة مشاهدات ومعاينات ودراسة ابي العباس للنباتات المختلفة التي مر بها في رحلته المذكورة سابقاً ، كما انها حصيلة حواره مع بعض علماء الاعشاب والعطارين في بعض المدن التي مر بها يضاف اليها ماجمعه من افواه اعراب البوادي او بربر الشمال الافريقي او بعض سكان المدن مما يتعلق بأسماء بعض الاعشاب وخواصها الطبية واوجه استخداماتها في الاقاليم التي تنبت فيها ، يضاف الى كل هذا وذاك القليل من معلوماته التي حصل عليها بالدرس في بلاده الاندلس اوقرأها في بعض كتب الصيدلة او النبات (٢١٣) . وبذلك فالكتاب لا يمثل جملة معرفة ابي العباس بالاعشاب بل هو يمثل التفاصيل النباتية لرحلة علمية ، فهو تماماً كما يقول كراتشكوفسكي «ان الكتاب قد كرس فعلا بتمامه للمسائل النباتية وحدها»

(٢١١) ابن البيطار : الجامع ، جـ٢ ، ص١٤ ، ٧٧ .

(٢١٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٨١ . سيقوم الباحث بنشر النصوص المتبقية من الرحلة مع دراسة وافية .

(٢١٣) يذكر كتابين او ثلاثة فيما تبقى لدينا من نصوص ، منها كتاب «فقه اللغة» للثعالبي ، او «النبات» لابي حنيفة الدينوري .

وحفل بمعلومات جديدة في صددها . مثال ذلك مايورده من نباتات سواحل البحر الاحمر» (٢١٤) .

اما منهج الكتاب ، فان مادته رتبت تحت اسماء النباتات ، نباتاً نباتاً . مرتبة هجائياً . وجرى تناول كل نبتة على حده ، ورغم اننا لانستطيع ان نجد تناولا منتظماً لجوانب بعينها في النبتة يجري تناولها في حال عرض المعلومات عن كل نبتة ، الا انه يمكن القول انه جرى التأكيد على نطق اسم النبات وتحريك حروفه ، خاصة إن لم يكن الاسم عربياً مما قد ينتاب النطق بأسمه اللبس (٢١٥) ، كما يبين فيما اذا كان الاسم عربياً ام بربرياً ام يونانياً ، وغالباً ماتذكر الاسماء المختلفة للنبات الواحد بأختلاف الامكنة (٢١٦) ، من بواد ومدن وقرى . مما مر به ابو العباس في رحلته او شاهده في بلاده وسمعه هناك ، وكثيراً . وليس دائماً مايرد . وصف اجزاء النبتة او العشبة المذكورة ، كجذورها اوسوقها او اوراقها او زهرها او ثمرها (٢١٧) . واذا ماشابهت النبتة نبتة اخرى ذكر ذلك من باب التمييز والتعريف للقارىء (٢١٨) ، وزيادة على كل هذا حوت بعض النصوص . طرائف متفردة مما يتعلق بنبتة او عشبة دون غيرها ، اما من حيث تأثيرها ، او سبل استخدامها او طرق نقلها بعد جنيها الى الاسواق (٢١٩) .

بجانب كل المؤلفات السابقة فان المراكشي يذكر بأنه كان لابن الرومية مؤلفات اخرى صغيرة او كبيرة لم يسمها (٢٢٠) ، وربما كان احدها

---

(٢١٤) كراتشكوفسكي : تأريخ الأدب الجغرافي ، ج١ ، ص٣٤٧ .
(٢١٥) كمثال انظر ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص ٩٥ .
(٢١٦) كامثلة انظر المصدر نفسه ، ج١ ، ص٨٦ ، ج٣ ، ص ٩٥ .
(٢١٧) كمثال انظر المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١٢ حديث المؤلف عن نبات القرصعنة .
(٢١٨) كمثال انظر المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٧٣ .
(٢١٩) كأمثلة انظر المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١٩ ، ج٤ ، ص٣ — ٤ ، ج١ ، ص٧٣ .
(٢٢٠) المراكشي ، الذيل ، س١ق٢ ، ص٥١٣ .

كتاب « الادوية المفردة » الذي ذكره ابن ابي اصيبعة (٢٢١) ، الا اذا كان هذا هو كتاب (الرحلة) الذي ذكرناه .

تقضت حياة ابي العباس بن الرومية في هذه المناشط العلمية المفيدة والتي توزعت على مساحة حياته جملة ، والى جانبها كان له بعض الولع بنظم الشعر ولكنه لم يكن ممن يرغب في ذكر مايؤلفه من شعر للاخرين ، ربما حياءً او لانه لم يعد الشعر شيئاً جدياً مما يجب ان يشغل به العالم نفسه ، يقول صاحبه ابن سعيد « وكان غير متظاهر بقول الشعر ، الا ان اصحابه يسمعون منه ويروون عنه ، وحملته عليه في بعض الاوقات ، فقال : تكفيك هذه الابيات ... [وهي في الثناء على مدينة دمشق التي كان يطنب في حديث الشوق اليها] :

خيم بجلقَ بين الكأس والوَترِ في جنة هي ملء السمع والبصر (٢٢٢)

كما انه كان كثير النسخ للكتب فان لم يكن منصرفاً الى التأليف او علاج الناس في دكانه انصرف الى النسخ ، هذا رغم افراط رداءة خطه (٢٢٣)، والتي قد تكون احد اسباب قلة انتشار كتبه ولكثرة اهتمامه بالنسخ والعلم وزهده بما سواه فان رواية تروى عن مرور ابن هود حاكم الاندلس ،وبلده اشبيلية من (٦٢٦ ــ ٦٣٥ هـ/ ١٢٢٨ ــ ١٢٣٧ م) به وهو ينسخ في دكانه، فوقف ابن هود بباب الدكان وسلم على ابن الرومية ، الذي رد السلام دون ان يقوم للقائه ، ثم سرعان ماانكب على كتاب ينسخه ، فبقي ابن هود «واقفاً منتظراً ان يرفع اليه رأسه ساعة (طويلة) فلما لم يحفل به ساق فرسه ومضى » (٢٢٤) .

---

(٢٢١) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ص ٥٣٨ .

(٢٢٢) ابن سعيد : اختصار القدح ، ص ١٨١ .

(٢٢٣) المراكشي : الذيل ،س١ ق٢ ، ص ٥١٢ .

(٢٢٤) ابن الابار : تكملة ، جا ، ص١٢٢ . والمراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٥١٣.
وقد ذكرتها كل المصادر الاخرى .

وفاته وذكراه :

توفي ابو العباس بن الرومية في اشبيلية سنة (٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م) بأجماع المؤرخين (٢٢٥)، ورغم ان ابنه ابو النور محمد ذكر ان وفاته كانت منسلخ ربيع الاول من السنة (٢٢٦) ، بينما اشار ابن الابار الى انها ليلة الاثنين مستهل ربيع الاول (٢٢٧) . فلا يبدو انهما مختلفان تماماً حيث وضح ابو جعفر بن الزبير فيما نقله المراكشي الغموض اذ بين ان ابا العباس توفي « بين الظهر والعصر في يوم الاحد الموفي ثلاثين من ربيع الاول (٢٢٨) .

لقد كانت وفاة ابي العباس قبل سقوط مدينته اشبيلية بيد ملك قشتالة بتسع سنوات . ويبدو ان من تبقى من افراد اسرته هاجروا منها انذاك . وان كنا لانعلم بالضبط عدد افراد اسرته او من بقي منهم بعده ، الا اننا نعلم بالتأكيد ان ابنه محمد ابا النور كان يعيش بعد ذلك في مراكش مجاوراً للمؤرخ المراكشي فيها (٢٢٩) . وتوحي كنية ابي العباس ، بأن له إبناً آخر هو عباس . ولكننا لم نسمع عنه شيئاً البتة .

انبرى تلامذة الشيخ بعد وفاته يعملون على تخليد ذكراه فرثاه بعضهم.(٢٣٠) الا ان احدهم ، و هو الاخص به، المحدث الناقد ابو محمد بن قاسم الحرار الجزيري ، تهمم بجمع اخبار ابي العباس ، وحشد مآثره واثاره وتضمينهـا في مجلد واحد كبير (٢٣١) ، وقد انجز ذلك بالفعل ،

---

(٢٢٥) انظر جميع المصادر التي سبق ايرادها في ترجمة حياة ابي العباس بن الرومية .

(٢٢٦) المراكشي : الذيل ، س١ق٢ ، ص٥١٣ .

(٢٢٧) ابن الابار : تكملة ، جا ، ص ١٢٢ .

(٢٢٨) المراكشي : الذيل ، س١ق٢ ، ص ٥١٣ — ٥١٤ .

(٢٢٩) المصدر نفسه ، ص٥١١ .

(٢٣٠) وردت اسماؤهم لدى ابن الخطيب : الاحاطة ، جا ، ص٢٢١ .

(٢٣١) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٥١٣ .

وخرج بسفر قيم في سيرة الرجل ومراثيه اطلق عليه عنوان « نثر النور والزهر في نشر احوال الشيخ ابي العباس النباتي » (٢٣٢) . وتضمن بالاضافة الى ماذكرناه قصيدة جميلة في رثائه من (٦٩) بيتاً نظمها القاضي اسماعيل بن سعد المسعود بن عفير ، احد اصدقاء ابي العباس ، وكان الجزيري قد طلب منه نظمها ليضمنها في كتابه المذكور ،الذي ضاع لسوء الحظ ، وبقيت منه هذه القصيدة فقط (٢٣٣) ، وهي قصيدة جميلة تفوح بالثناء على الشيخ وتنتشر في اطرافها اسماءالورود والرياحين والأعشاب التي عاش معها ابو العباس ، ويكتنف قافيتها الآس والاغراس ، وربما تضمن كتاب الجزيري هذا ذكر القاب ابي العباس وكناه ، وهي كثيرة تراصفت وراء اسمه كلما اورد احدهم ترجمته ، فقد كني ابا العباس ، كما لقب نتيجة علمه وعمله بالنبات والاعشاب بجملة القاب ومنها النباتي ، وهو اللقب الذي استخدمه الجزيري في عنوان كتابه المذكور ، كما انه احد لقبين ذكرهما كثيراً تلميذه الاخر ابن البيطار عندما كان يشير اليه مقتبساً منه (٢٣٤) . كما نعت بالزهري ، نسبة الى الزهر والزهور (٢٣٥) ، وبحكم قيامه بأخذ الحديث ورؤيته وحفظه وضبطه والاجازة فيه فقد لقب بالحافظ لدى الكثيرين ، وهو اللقب الثاني الذي اورده ابن البيطار مراراً الى جانب سابقه (٢٣٦) ، ولكن ابا العباس عرف بأبن الرومية ، اكثر مما عرف بأية كنية اخرى كما يشير الى ذلك كل من ترجم له ممن ذكرناهم الا ان المراكشي يقول بأن ابا العباس « كان يكرهها ويقلق لها ، فشهر بالعشاب

---

(٢٣٢) ذكره ابن العديم : بغية ، هامش المنذري : التكملة جـ٦ ، ص٣٣٥ ، هامش (١) .

(٢٣٣) المراكشي : الذيل ، س١ق٢ ، ص٥١٤ – ٥١٧ .

(٢٣٤) ورد في اكثر من موضع في (الجامع) مثلا ، جـ١ ، ص٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٥ ..

(٢٣٥) الذهبي : المشتبه ، جـ١ ، ص٣٣٩ .

(٢٣٦) كمثال انظر الجامع ، جـ١ ، ص١٠٥ ، ١٧٨ ..

والنباتي» (٢٣٧) . وربما كان هذا هو السبب وراء عدم استخدام تلميذه ابن البيطار لهذه الكنية مطلقاً ، ولا الجزيري . كما لحظنا من عنوان كتابه في سيرته ، ولم يكن ذلك حتماً الا من باب الوفاء للشيخ وما احب ، رغم ان الاخرين من معاصريه واصدقائه كابن الابار وابن سعيد كان قد غلب لديهم استخدامها . ويبقي اخيراً لقب الحزمي الظاهري . وواضح انه متأت من كونه على مذهب ابن حزم كما سبق وذكرناه .

لقد لف الزمن اعمال الرجل وطواها فضيعها ، كما جنت الايام على (سيرته) التي اعدها تلميذه فغيبتها ، ومع هذا فان النبذ اليسيرة عن حياته واعماله نفذت عبر تراجم المترجمين ، كافية كي تؤبد له ذكراً في رقم الخالدين .

---

(٢٣٧) المراكشي : الذيل ، س١ق٢ ، ص ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(•) يقدم الباحث جزيل شكره الى الأستاذ الدكتور منجد مصطفى بهجت - قسم اللغة العربية ، كلية الاداب ، جامعة الموصل لحرصه على مساعدة الباحث ببعض المصادر التي لم تتيسر له عن طريق آخر .